الفصل السابع
مشكلات الحاضر وطموحات المستقبل

العملية التربوية بطبيعتها لابد أن تكون ممتدة بامتداد الأبعاد الزمانية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، فكما سبق لنا أن بينا في مواقع متفرقة، فإن اندماج الصغار في مجتمع الكبار يقتضي أن يستوعب الصغار ما سبق للكبار أن عرفوه وعاشوه واستوعبوه من خبرة البشرية الممتدة عبر حقب التاريخ المختلفة، بعد عمليات متعددة من الاختيار والانتقاء والحذف والاستبقاء.

لكن هناك بطبيعة الحال تلك الحقيقة الواضحة وهى أن الأبناء يعيشون حاضرا بعينه، بكل ما يحمله من مشكلات وأزمات وإنجازات وتحديات، لابد أن يتدخل تدخلا بارزا في صور التفكير القائم وسبل العمل وأهداف المسير أيا كان مجال العمل، حتى أن من المسلمات التي أصبحت تقوم عليها التربية أنها إذا كان مطلوبا منها أن تعيد صياغة الحياة الفردية والاجتماعية من جديد، فهي تنطلق من معطيات الواقع نفسه، حتى لا تبنى قصورا في الهواء أو على رمال متحركة.

ثم هناك تلك الحقيقة الأخرى، وهى أن من نربيهم اليوم في مؤسسات التعليم المختلفة، نربيهم لزمان غير زماننا، وإذا نظرت على سبيل المثال إلى ملايين الأبناء الذين يلتحقون العام الحالي بالصف الأول في مرحلة التعليم الأولى، تجد أنهم سوف يتخرجون من آخر مراحل التعليم بعد ما يقرب من عشرين عاما، حيث ستكون الدنيا غير الدنيا، فعشرون عاما من عمر البشرية الآن، يمكن أن تشهد من التحولات ما كان يشهده العالم من قبل في أكثر من قرن من الزمان.

وهكذا فإن المربى عندما يمارس مهامه، يضع هذه الأبعاد الزمانية الثلاثة نصب عينيه: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

وإذا كان الفصلان الرابع والخامس قد طوفا بنا عبر الماضي، فإن هذا الماضي لم يكن كله من ذلك الصنف الذي يمضى وينقضي، حيث تبين لنا أن جزءا كبيرا منه هو مقوم أساسي من مقومات البنية الثقافية للذات الإسلامية، مما حتم علينا دراسته باعتباره أصلا من أصول التربية الإسلامية...

وإذا كانت البنية الأساسية للعقيدة الإسلامية، وخاصة، كلا من القرآن الكريم والسنة النبوية تستوعب الأبعاد الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، فإن الفصل الحالي معنى بمحاولة استطلاع مجموعة من التحديات والمشكلات والأزمات التي تواجهها الأمة، سواء على المستوى المجتمعي على وجه العموم، أو على المستوى التربوي على وجه الخصوص، وما يلقيه كل هذا من أعباء التفكير في المستقبل، على اعتبار أن هذا أيضا لابد أن يكون أصلا مهما من أصول التربية الإسلامية.

مشكلات حاضر الأمة وتحدياته

ومجموعة المشكلات والتحديات التي نعرض لها في الصفحات التالية، هي "مظاهر" و "نماذج" شكلت "المهم" وفقا لما هيأ الله سبحانه وتعالى لنا من بصر وتفكير، لا نستطيع بطبيعة الحال أن نزعم لها الشمول والاستغراق الكامل:

١ - التخلف الحضاري العام:

إن من المؤكد أن التقدم والتأخر ليسا حظوظا عمياء، بحيث يمكن تصور أن هؤلاء الناس من شأنهم أن يكونوا متقدمين، وهؤلاء من شأنهم أن يكونوا متخلفين، مثلما تصورت النظريات العنصرية التي شهدناها في الغرب، مثل النازية، والفاشية، وما تردد في كتابات بعض الفلاسفة والمفكرين. ولا نحتاج دليلا على ذلك أكثر من النظر بعين الاعتبار إلى المسيرة الحضارية للإنسان منذ أقدم العصور حتى الآن (مثل الأمة الإسلامية)، كان لها شأن كبير في هذه المسيرة الحضارية في زمن مضى، وأن أمة لها شأن عظيم في الحضارة المعاصرة، ربما لم تكن شيئا مذكورا بالأمس (مثل الولايات المتحدة الأمريكية).

وبناء على هذا فنحن إذ نشير إلى تخلف حضاري عام تعانى منه الأمة في وقتنا الراهن، فإن هذا يعنى حديثا عن حال عارض يمكن أن يزول، ولا يفيدنا في مواجهة هذا الحال أن نكرر وصف المولى سبحانه وتعالى لنا بأننا "خير أمة أخرجت للناس"، طالما أننا - فيما يبدو - لا نقوم بالمهمة المنوطة بنا "تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر".

فعلى الصعيد السياسي نجد الأمة منقسمة على نفسها، وذلك بسبب نجاح القوى الاستعمارية - بمساعدة نفر منا نحن - في تمزيقها إلى عشرات الدول القومية، وقد أقيمت الحدود المصطنعة بين هذه الدول بشكل يولد دائما أجواء من التوتر والاحتكاك فيما بينها،

وتغذى الدوائر الاستعمارية والرأسمالية العالمية على الدوام تلك الأجواء بتدبير وتنمية أسباب النفور والعداء [١].

أما بالنسبة للجبهة الداخلية، فقد وجدت كل دولة قومية نفسها تعاني من انقسام داخلي، بحيث يشكل سكانها خليطا قوميا غير متجانس مما مكن المستعمرين من تسليط فئة على أخرى، ولم تجد هذه الدول القومية من الفرص ما يتيح لها أن تجمع أشتات مواطنيها في وحدة سياسية تتمتع بالاستقرار، بل انعدمت فرص الاندماج والتوحد بين بعض الكيانات السياسية التي تجمع بين شعوبها أمور مشتركة [٢].

ومرت الشعوب الإسلامية بجملة من الظروف التاريخية التي أدت إلى فصام واضح بين القيادة الفكرية للأمة والقيادة السياسية، وأدى التمزق الحادث إلى تراجع الطاقة المسلمة وتمزق النسيج المسلم وتدهور الفكر والأنظمة الإسلامية وانحطاطها وفتح الباب واسعا أمام قوى التدهور والفساد والانحطاط، وأخذت طاقة دفع الإسلام تخبو تدريجيا وتتضاءل، ولم يبق لحضارة الإسلام وعطاء الأمة في العصور المتأخرة وغياب البديل الحضاري الذي يكشف عورتهم ويتهدد أصل كيانهم، رغم ما اجتاح أرضهم من غزو البرابرة المغول والروم والصليبيين [٣].

وعلى الصعيد الاقتصادي، فمن المحزن حقا أن تكون هناك بلدان إسلامية متعددة زراعية، ومع ذلك فنحن لا نحقق لأنفسنا الغذاء الكافي، وإنه لمن المخجل حقا أن مناطق من فلسطين ظلت بأيدينا زمنا طويلا صحراء قاحلة، فلما استولى عليها الصهاينة حولوها إلى جنة خضراء!

أما تخلفنا الصناعي فآياته أكثر من أن تعد أو تحصى، فنحن نستورد في كثير من بلادنا من الإبرة إلى الصاروخ، مع أن فقهاء الإسلام اعتبروا إتقان كل علم أو مهنة أو صناعة يحتاج إليها المسلمون فرض كفاية، كما اعتبروا ذلك عبادة وقربة إذا صحت النية فيه، وهذا ما جعل د.القرضاوي يقول دائما "إن الأمة التي أنزل الله عليها سورة الحديد، لم تتعلم صناعة الحديد" [٤]!

---

(1) المعهد العالمي للفكر الإسلامي: إسلامية المعرفة، هيرندن، فيرجينيا، ١٩٨٦، ص٢٤.

(2) المرجع السابق، ص ٢٥.

(3) عبد الحميد أبو سليمان: أزمة العقل المسلم، هيرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤، ط٣، ص ٤٨.

(4) يوسف القرضاوي: هموم المسلم المعاصر، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٨٨، ص١١٦.

لقد رأينا بلادا لم تبدأ نهضتها إلا من قريب، ولكنها خطت خطوات جبارة في وقت قياسي، كما في كوريا الجنوبية التي بدأت نهضتها الصناعية بعد الحرب بينها وبين كوريا الشمالية، في أوائل الخمسينيات، وأصبح اليابانيون يرونها منافسا خطرا عليهم!

والصين التي لم تبدأ نهضتها إلا بعد قيام الثورة فيها عام ١٩٤٩، وفيها ما فيها من سكان أكثر من أي دولة في العالم، حيث يتجاوز عددهم المليار ببضع عشرات الملايين، وكانت تعيش فقرا لا مثيل له، أصبحت تصدر لنا الجلابيب وسجاجيد الصلاة والساعات التي تؤذن في المواقيت المحددة، وفوانيس رمضان، وهى البلد الذي لا دين له، هذا في الوقت الذي تصرخ فيه مختلف الأجهزة في بعض البلدان الإسلامية مما يسمونه (الانفجار السكاني)، وعدد السكان في جملة الدول العربية - مثلا - لا يتجاوز ثلاثمائة مليون، ومساحتها أكبر من مساحة الصين، ومجموع دخولها القومية أكثر!!

فهل لدى الإنسان الكوري والياباني والصيني والأوربي من المواهب والقدرات ما ليس عند الإنسان العربي أو المسلم، حتى تقدم القوم وتخلفنا نحن؟

لقد طال تخلفنا واتسع، حتى كاد يحسبه بعض الناس لازمة من لوازمنا الذاتية، وكأن التخلف إسلامي، كما أن التقدم غير إسلامي! بل ربما توهم بعض من يجهلون التاريخ أن الإسلام هو سبب تخلفنا، ما دام المسلمون - كل المسلمين على وجه التقريب - متخلفين، وما دام كل المتقدمين غير مسلمين [٥]!

وعلى الرغم من كثرة الحديث، والمؤتمرات التي تعقد مطالبة بسوق إسلامية أو عربية مشتركة أسوة بما هو واقع بالنسبة للدول الغربية، فإن معطيات الواقع ما زالت تنبئ بمؤشرات مؤسفة حقا، فقد رصد باحث في الثمانينيات (ولم يتغير هذا كثيرا ونحن نخطوا أولى سنوات القرن الحادي والعشرين) أن ٨% فقط من حجم تجارة الدول الإسلامية هو الذي يتم بين مجموعة تلك الدول، بينما ٩٢% من تجارة العالم الإسلامي مع أوربا والولايات المتحدة الأمريكية (والآن شاركت دول آسيوية غير إسلامية في هذا)، في الوقت ذاته فإن ديون العالم الإسلامي للدول والمؤسسات المالية الغربية وصلت إلى ٢٣٠ مليار دولار. وقد عبر الشيخ محمد الغزالي عن هذا الوضع المحزن عندما قال في كتاب له أنه "لو قيل لكل شئ في البلاد الإسلامية، عد من حيث جئت لخشيت أن يمشى الناس حفاة عراة،

(5) المرجع السابق، ص ١١٧.

لا يجدون – من صنع أيديهم – ما يكتسون، ومالا ينتعلون، ومالا يركبون، ولا ما يضئ لهم البيوت، بل لخشيت أن يجوعوا، لأن بلادهم لا تستطيع الاكتفاء الذاتي من الحبوب" [٦].

فإذا ما انتقلنا إلى ملمح واحد من الواقع الاجتماعي، حيث يضيق المقام عن التفصيل فيه، فسوف نرى استقطابا طبقيا غالبا على معظم الدول الإسلامية، يولد مشاعر لا نهاية لها بالظلم والحقد، مما لا يكون معه سلام اجتماعي، وتهرب منه الروح الدافعة إلى المشاركة والتنمية، فنحن نرى فئات تتمتع بامتيازات غير معقولة، تجعلها تلعب بالملايين لعبا حيث يتاح لها من الفرص والإمكانيات ما جعل الثراء يطرق بابها إليها، وإن لم تتعب في السعي، وإلى جوار هؤلاء نجد أناسا يبحثون عن لقمة الخبز فلا يجدونها، وإذا وجدوها فبشق الأنفس، مغموسة بالعرق والدمع والدم.

وحين تحتكر الثروة فئة من الناس، أو تتمتع أي طبقة بامتيازات لا تتوافر لغيرها، فإن هذا يعنى أنها قادرة على التأثير في السياسة والوصول إلى المناصب السياسية العليا بسطوتها الاقتصادية ونفوذها لدى من بيدهم الأمر، حتى البلدان التي تجرى فيها الانتخابات، يستطيع رأس المال أن يلعب دورا كبيرا في التأثير على الناخبين، بالدعاية المركزة حينا، وبالتأثير على القوى الضاغطة حينا، وبشراء الأصوات حينا آخر، مما جعل بعض الناس ينادون بالديموقراطية الاجتماعية، قبل الديموقراطية السياسية، وإن كانوا في النهاية أضاعوا الإثنين معا [٧].

ولقد أورث الخوف من الفقر شحا وجبنا يحول دون ارتياد المشاريع المغامرة، وجعل الناس من ناحية لا يغامرون حيث تنبغي المغامرة، وفى الوقت نفسه يتكدسون وراء المشاريع الناجحة حتى يفشلوها، ومن الأمثلة البسيطة للغاية التي يمكن سوقها برهنة على ذلك أنه إذا كانت هناك منطقة سكنية تحتاج إلى "بقال" واحد لخدمتها، فإن نجاح أول بقال يغرى الآخرين بنفس المشروع فتتعدد مشاريع البقالة حتى يعمها جميعا الكساد [٨].

ومن المعروف أن الأعمال الاجتماعية لها أخلاق ملازمة، لكننا لا نجد الناس في كثير من الأحيان يأبهون لها، ومن ثم سرعان ما يصطدمون بالفشل، وعندئذ تخرج أضغان النفوس ويبدأ الصراع، ويكفى على سبيل المثال أن ننظر إلى ما يأمرنا به القرآن الكريم من توثيق في

(6) فهمي هويدي: أزمة الوعي الديني، صنعاء، دار الحكمة اليمانية، ١٩٨٨، ص ٣٣٢.

(7) يوسف القرضاوي: هموم المسلم المعاصر، ص ١٢٨.

(8) سيد دسوقي حسن: دراسة قرآنية في فقه التجدد الحضاري، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٩٨، ص ٤٦.

المعاملات المادية، صغيرا كان أو كبيرا، لكن الكثير من التعاملات المادية بين الناس، تهمل أحيانا هذا الأمر، وتتولد من ذلك مشكلات عديدة.

ومن المألوف في أحاديثنا عن الغرب أننا نتناول الأخلاق فيه بقدر كبير من الزراية، معتبرين أنفسنا أعلى أخلاقا وأسمى، وعلى سبيل المثال، فإذا كنا نحارب تقاليد الغرب الجنسية في العلاقة بين الجنسين، إلا أننا لا ينبغي أن ننسى تلك الفكرة التي ظلت تحكم الكثرة الغالبة في المجتمعات الإسلامية تجاه المرأة، حتى لقد شاع القول بأن المرأة لابد أن تكون قعيدة بيتها، لا تخرج منه أبدا إلا إلى الزواج أو إلى القبر، وترتب على هذا أن ظللنا فترة طويلة لا نرى المرأة تدخل مسجدا، بل في قرانا، وفى كثير من المدن، ظلت المرأة لا تصلى بالمسجد، وهى إلى جانب هذا الحرمان الروحي، كان التعليم محرما عليها، وقلما يؤخذ لها رأى في الزواج، وإذا انحرف الشاب تسوهل معه، أما إذا انحرفت المرأة فجزاؤها القتل. أما بالنسبة لما مورس عليها من ألوان القهر، فحدث ولا حرج، فكأنها (شئ) امتلكه الرجل يعتبر أن له الحق أن يفعل به ما يشاء، ولا حقوق لها تجاهه [٩]!

٢ - الوقوع في براثن الهيمنة الأجنبيـــــة:

فقد دخلت الكثرة الغالبة من بلدان الأمة الإسلامية في الفترة الحالية ما يمكن تسميته بمرحلة الإدماج، وذلك أن علاقتها بالغرب قد مرت بمراحل أربع [١٠]:

- مرحلة تطويق أقطارها وعزلها، وتدمير إمكانات التواصل بينها.
- مرحلة التغلغل الشامل وفرض التبعية الشاملة.
- مرحلة الهيمنة العسكرية للتهيئة لبناء أجهزة التغيير والإشراف على عمليات التفكيك، وإيجاد الأنظمة التابعة القادرة على مصادرة احتمالات التغيير باتجاه إعادة بناء الأمة.
- ثم مرحلة الإذابة التامة والإدماج الشامل المحكومة بعلاقات التبعية الشاملة للنظام العالمي المنبثق عن اتفاقية "سايكس /بيكو"، ثم النظام العالمي الذي انبثق بعد الحرب العالمية الثانية، ثم النظام العالمي الجديد الذي انبثق بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ومنظومة الدول الاشتراكية، وقد توج هذا النظام العالمي الجديد بما أصبح يعرف باسم "العولمة"، وها نحن، بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية في الطريق إلى نفق مظلم لا يعلم الله إلى أين يكون المسير؟!

---

(9) محمد الغزالي: هموم داعية، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨٣، ص ١٤٩.

(10) طه جابر العلواني: التعددية، أصول ومراجعات، بين الاستتباع والإبداع، القاهرة، المعهد العـــالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦، ص ٢٣.

وهذه التطورات في عالم اليوم ترتبت عليها، أو ارتبطت بها نتائج اقتصادية واجتماعية داخل مجتمعاتنا، تضاف إلى ما سبق أن بيناه، فأنماط الإنتاج عندنا أصبحت خاضعة لما تقرره الدول المسيطرة على النظام الدولي، فما نتخصص في إنتاجه لم يعد يخضع لاختياراتنا واحتياجاتنا نحن، ولكن يخضع لمصالح الدول المسيطرة وقراراتها، فهناك أفرع من الإنتاج تتضخم عندنا دون داع وطني، وهناك أفرع أخرى تتراجع وتتروي، وفى النهاية نجد أن بناءنا الاقتصادي في مجمله مشوه ومتخلف وعاجز عن تلبية القسم الأكبر من حاجات مواطنينا، وبالتالي تلهث بلداننا خلف الأسواق الخارجية كي تمدها بما ينقصها، قابلا لشروطها وتعليماتها (١١).

وما ذكرناه عن تشوه الهيكل الاقتصادي يلازمه (بل يسبقه) تشوه في البنيان الاجتماعي، فالفئات القائدة لمجتمعاتنا أصبحت تابعة لمراكز السيطرة الأجنبية. إنها تابعة في ثقافتها، وفى مصالحها (أي مصدر دخلها وامتيازاتها). إنها متفرنجة في نمط حياتها وفى مجمل سياساتها. وأخطر من ذلك أنها مهزومة في أعمق أعماقها، ففقدت أية نية للمقاومة، أما بالنسبة للعناصر التي ما زالت تحمل بذور التمرد، فإن أهل الحكم والسيطرة يعملون على إقصائها عن مواقع النفوذ والقرار، مستخدمين كل أدوات القوة والتأثير (١٢).

وفى ظل هيمنة الغرب على المؤسسات الدولية - وخاصة مجلس الأمن الدولي الذي أصبح شبيها بمجلس الأمن القومي الأمريكي - أخذ الغرب يقنن منظومة قيمه في مواثيق يسميها "دولية" ليفرضها - باسم الأمم المتحدة - على العالم بأسره. صنع ذلك على سبيل المثال في مؤتمر السكان والتنمية بالقاهرة عام ١٩٩٤، وفى مؤتمر المرأة في بكين عام ١٩٩٦، وعلى سبيل المثال أيضا بالنسبة للجنس، الذي أسمته وثيقة المؤتمر الدولي "الصحة الجنسية والصحة التناسلية، بمعنى التمتع بأعلى مستوى ممكن من المتعة الجنسية"، جعلت الوثيقة هذا الجنس، وكأنه مثل الغذاء، حقا من حقوق الجسد الإنساني، وذلك بشرط أن يكون "مأمونا ومسئولا"، ودونما اشتراط الشرعية والحلال والمشروعية في هذه المعاشرات الجنسية (١٣).

وهكذا برز الغرب عملاقا متعاليا في عالم من الأقزام، وجعل من نفسه مركزا ومحور استتباع ومرجعية فكرية وعلمية ومنهجية كونية عالمية وحيدة تملك من المنظومات الفكرية والإعلامية والاتصالية ما يقنع الشعوب الإسلامية والعربية بشرعية ومشروعية ما يفعل الغرب

---

(11) عادل حسين: الإسلام دين وحضارة، القاهرة، مطابع المنار العربي، ١٩٩٠، ط٢، ص ٧.

(12) المرجع السابق، ص ٨.

(13) محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٩٠، ص ٢٦

من تدمير لتوصيل رسالته التحضيرية إلى الشعوب البربرية المحرومة التي بلغ من همجيتها وغبائها أنها تقاوم جهوده في تحضيرها وتعتبر ذلك استعمارا وسيطرة، وغير ذلك! (١٤).

بل وصل الأمر إلى ما يسميه فهمي هويدي "مرحلة الاسترقاق"، على أساس أن ما شهدته أمتنا طوال القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين من (استعمار) إنما كان جهدا لتملك ثروات بلادنا، أما ما بدأنا نشهده عقب الجلاء العسكري عن بلداننا فهي جهد متواصل نحو "امتلاك" الإنسان العربي والمسلم، وهو ما يسمى بالاسترقاق (١٥).

ويمكن القول بأن عصرنا الحالي يشهد نوعا جديدا من الأرقاء يمكن تسميتهم بالأرقاء الجدد، وإذا أردنا أن نتأمل حال هؤلاء، فسوف نرى عجبا! فقد كان أرقاء العصور القديمة والوسطى من عامة الناس، ويواجهون الحقيقة بلا أدوات تجميل، ألا وهى أنهم عبيد. أما أرقاء العصر الحالي، فمعظمهم من الخاصة: مفكرون، ومثقفون، وأساتذة جامعات، وزعماء سياسيون، وفنانون، تسمعهم في مناقشاتهم فتسمع ما لا يشير أبدا إلى أنهم أبناء بلداننا من شدة غربة ما يفعلون وما يقولون بالنسبة لموروثنا الثقافي، بل حتى بالنسبة لواقعنا(١٦).

٣- الهويـــــة المفقودة:

فالهوية في عرف حضارتنا الإسلامية مأخوذة من "هو..هو"، بمعنى أنها جوهر الشيء وحقيقته المشتملة عليه اشتمال النواة على الشجرة وثمارها، فهوية الإنسان، أو الثقافة، أو الحضارة، هي جوهرها وحقيقتها، ولما كان في كل شئ من الأشياء – إنسانا أو ثقافة أو حضارة – "الثوابت" و "المتغيرات"، فإن هوية الشيء هي "ثوابته" التي "تتجدد" ولا "تتغير". تتجلى وتفصح عن ذاتها، دون أن تخلى مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة، إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان، يتميز بها عن غيره، وتتجدد فاعليتها، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب، دون أن تخلى مكانتها لغيرها من البصمات (١٧).

ومسألة الهوية تنطوي على معان رمزية وروحية وحضارية جماعية تعطى الفرد إحساسا بالانتماء إلى جسم أكبر، وتخلق لديه الولاء والاعتزاز بهذا الجسم الأكبر، وكانت الهويات البديلة المفتعلة أعجز من أن تشبع حاجة المواطنين إلى هذا الإحساس بالانتماء، بل وكانت

---

(14) طه جابر العلواني: التعددية، أصول ومراجعات، ص ٢٣

(15) فهمي هويدي: القرآن والسلطان، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٢، ط٢، ص ٢٦.

(16) المرجع السابق، ص ٧٧.

(17) محمد عمارة: مخاطر العولمة، ص ٦

دافعا لقطاعات واسعة منهم للبحث عن هويتهم الحقيقية وإعادة اكتشافها ممثلة في الإسلام، ومن ثم التوجه نحو تكريس الشعور بهذه الهوية وتعزيزها، بكل ما هو متاح لها من سبل، الأمر الذي حول في نهاية المطاف الدول القائمة إلى أجسام غريبة في مجتمعاتها [١٨].

لكن الأمر لم يمض هكذا بسهولة، فهناك شعوب إسلامية أخرى رأت هويتها في "العروبة"، مما ولد في الساحة نوعا من سوء الخلل في العلاقة بين العروبة والإسلام، هذا الخلل الذي يصعب فهمه، وبالتالي البصر بطريق الخروج من هذا المأزق، إلا بأن نلقى نظرة سريعة على الظروف التي أدت إلى هذا.

فمنذ الربع الثاني من القرن العشرين على وجه التقريب، كان لابد من اتخاذ موقف من التحدي الحضاري الغربي لبلداننا، فتحدى الحضارة الغربية لمجموعة الشعوب العربية، ولد، كما هو الحال في تحدى الحضارة الغازية الغالبة نوعين من ردود الفعل والاستجابة، فأما رد الفعل الأول فتمثل في تيار من يسميهم المفكر الفلسطيني المعروف د. الدجاني، "الانغماسيين" الذين، وإن قاوموا الاحتلال الغربي، إلا أنهم اعتقدوا بأن تقدمهم مرهون باستعارة الفكر الغربي، فكان أن عمدوا إلى التغريب. وأما رد الفعل الآخر فتمثل في تيار من يسميهم مفكرنا "بالانكماشيين" الذين قاوموا الاحتلال الغربي واعتقدوا أن نجاتهم تكمن في التقوقع على أنفسهم والفرار إلى ماضيهم، فكان أن عمدوا إلى ما أسماه السلفية المتزمتة. أما الاستجابة الثالثة فتمثلت في تيار بناة النهضة، الذين سعوا إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وعمدوا إلى بناء حضارة أمتهم [١٩].

ويمكننا أن نلاحظ بوضوح أن الخلل في فهم العلاقة بين العروبة والإسلام قد اقتصر على الانغماسيين والانكماشيين، وأن أفراد ذلك القطاع من حملة الفكر القومي، الذين اتخذوا موقفا حادا من الدين، كانوا انغماسيين، بينما كان ذلك القطاع من حملة الفكر الديني الذي اتخذ موقفا حادا من القومية من الانكماشيين. ولم يبد على تيار النهضة أنه أخطأ في فهم هذه العلاقة، لقد فعل هذا الخلل فعله في الفكر القومي وفى الفكر الديني. وعلى الرغم من أن الخمسينيات والستينيات شهدت جهودا لمعالجته، وإلى توضيح الصلة الوثيقة بين العروبة والإسلام، إلا أن الغلاة من تياري الانغماس والانكماش وقفوا عقبة أمام بلوغ هذه الجهود

---

(18) عبد الرازق عيد ومحمد عبد الجبار: الديموقراطية بين العلمانية والإسلام، بيروت، دار الفكر المعاصر، ١٩٩٩، ص ١٠٨.

(19) محمد أحمد خلف الله وآخرون: القومية والإسلام، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨١، ص ٤٩١.

غايتها وتحقيق هدفها. إن الخلل القائم في فهم العلاقة عند قطاعات مؤثرة في أمتنا يطرح قضية الانتماء والهوية [٢٠].

بيد أن مزيدا من التأمل فيما حدث، وما يزال لدى البعض – من خلل في العلاقة بين العروبة والإسلام يجعلنا نتساءل من وجهة نظر عملية – ونكاد أن نقول مصلحية – كيف يكون مقبولا أن يفرط دعاة القومية في قيمة الإسلام، فيلحقون بنا خسائر فادحة على جبهتين: جبهة تمتد في عمق التاريخ، تسفر عن إسقاط علماء فطاحل من غير العرب صنعوا حضارة الإسلام، وأثروا حضارة الإنسان، وجبهة تمتد في عرض العالم الراهن، إذ نفقد بهذا الطرح عمقا إسلاميا لا حدود له – بشرى واقتصادي – يمتد من إندونيسيا إلى قلب إفريقيا، أو من "غانة إلى فرغانة" في وسط آسيا بتعبير الرحالة العرب [٢١].

وعلى الجانب المتعلق بالإسلاميين، فإن رفضهم تيار القومية العربية متأثر في الحقيقة برصيد من الخلفيات التاريخية والممارسات العملية التي يصعب تجاهلها، وأول هذه الشكوك ترسب نتيجة مواقف بعض دعاة القومية العربية، التي خلطت بين الخلافة العثمانية والإسلام، ورفضت الإثنين معا منذ العشرينيات باسم العلمانية. ثم الدور البارز الذي لعبه غير المسلمين في قيادة الحركة القومية، وآخر هذه الشكوك ترسب في أعقاب "المحنة" التي تعرضت لها الحركة الإسلامية على أيدي الأنظمة التي تبنت الدعوة القومية في الخمسينيات والستينيات.

وأصبح التحدي البارز أمام عدد من مفكرينا، سواء على الصعيد القومي أو على الصعيد الإسلامي أن يكشفوا عن هذا التعارض الوهمي بين "العروبة" و "الإسلام"، بل إن كثرة غالبة في دول المغرب العربي توحد بين الأمرين.

٤ - الخلل في ترتيب الأولويات:

فآمال الأمة كثيرة يكاد أن يكون من الصعب حصرها، وكلها تتدافع على العقول والقلوب تبغي أن تعرف طريقها إلى التشخص والوجود على أرض الواقع حتى تتحرك الأمة خطوات إلى أمام على طريق النهوض الحضاري. ولما كان من المستحيل أن تتحقق هذه الآمال والطموحات في وقت واحد لأسباب متعددة، كان من الضروري القيام بترتيب هذه الآمال والطموحات وفق جدول "أولويات" يبدأ بالأهم، فالمهم، فالأقل أهمية..وهكذا.

---

(20) المرجع السابق، ٤٩٢.

(21) فهمي هويدي: القرآن والسلطان، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٢، ص ٩٦.

لكن الخلل عندما يصيب التفكير في سلم الأولويات، فمن المرجح أن تختلط كثير من الأمور، مثلما حدث في أمتنا عبر العديد من العقود، حتى وقتنا الحاضر، لعلنا نشير إلى أمثلة من مظاهر هذا الخلل في السطور التالية (٢٢):

- الاستغراق بالجزئيات والتفاصيل والانشغال عن الكليات والعجز عن رد الجزئيات إلى الكليات والفروع إلى الأصول وفهم العلاقة الدقيقة بينها.
- تقديم النوافل على الفرائض، أو التحسينيات على الحاجيات، أو الحاجيات على الضروريات في مختلف جوانب الحياة.
- عدم التفريق بين الحق والرجال، والركون إلى معرفة الحق بالرجال بدلا من معرفة الرجال باتباع الحق، وهذا قد أدى إلى نوع من "الصنمية" والعمل على إضفاء البعد الشخصي على الفكرة والمبدأ، فكثيرا ما نتعلق بمبدأ تافه لمجرد محبتنا للقائل به، أو نرفض مبدأ قويما لمجرد رفضنا للمنادى به أو متبنيه.
- خلط شديد بين ما هو ثابت وما هو متغير، فكثير من المتغيرات حولها طول الأمد والذيوع وكثرة التعاطي والمتعاطين إلى ثوابت، وكثير من الثوابت حولت إلى متغيرات بدوافع وأسباب مماثلة. وكثيرا ما أدى ذلك إلى خلط في قضايا المقبول والمردود، والبدعة والسنة، وربما الحلال والحرام، والفردي والجماعي (٢٣).

إننا من غير شك من الواعين بتكامل بناء الإسلام، فالعقيدة أساسها الإسلام والأخلاق ضمانه، والشريعة ترجمته العملية، والواجبات فيه كلها مطلوبة، والمحرمات كلها واجب تركها، ولكن دعوة الناس وتربيتهم والتوصل إلى إقناعهم وكسب ولائهم تقتضي مراعاة تدرج خاص وترتيب معين فيما يبدأ به، وما يمكن أن يتراخى طلبه والتشديد في أمره، وكثير من الناس يقفزون قفزا من كتب الفقه إلى منبر الدعوة وقاعات التعليم دون أن يتوقفوا قليلا ليعرفوا واقع الناس وما هم فيه.

إن الأمر هنا ليس أمر فتوى ولا أمر تشريع، وإنما هو ترتيب في البيان، وتدرج في معاملة النفوس واقتراب من واقع الناس طلبا لهدايتهم وتربيتهم. إن الدعاة والمربين بالنهج الإسلامي يقعون في خطأ فادح إذا هم خرجوا على الناس في جميع المجتمعات بقائمة موحدة من الأوامر

(22) محمد الوكيلي: فقه الأولويات، هيرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧، ص/ت.
(23) المرجع السابق، ص/ث.

والنواهي ومطالب الإصلاح والتنشئة، متجاهلين خصائص تلك المجتمعات ومشاكلها التي تتفاوت في أهميتها وإلحاحها من زمن إلى زمن ومن بلد إلى بلد [٢٤].

أليس غريبا، على سبيل المثال، أن يطيل كثير من الدعاة الحديث في النهى عن شرب الدخان وعن سماع الموسيقى والغناء أو الدعوة إلى إرسال اللحية وفرض الحجاب على النساء، وألا نرى منهم نفس الاهتمام والحماس حين يتصل الأمر بقضايا الحدود عند المناداة بتطبيق الشريعة وتقنينها؟ إن أحدا لا يمكن أن يهون من قيمة الحدود أو يجادل في ضرورة إقامتها، ولكن وضعها على رأس القائمة هو محل النظر والاختلاف، فالحدود تتصل أساسا بظاهر الجريمة، وعقاب "المجرمين"، والشريعة وضعت أساسا للأسوياء الحافظين لحدود الله، فلماذا لا تذكر الشريعة الإسلامية عند البعض إلا مقترنة بالحدود من قتل وقطع وتغريب؟

ومن مظاهر الخلل في سلم الأولويات، تقدم الاهتمام بالأخلاق على المستوى الخاص، الفردي على الاهتمام بالأخلاق على المستوى الجماعي العام؟ [٢٥]، وعلى سبيل المثال، فالتهرب من الضرائب، أو الغش في الامتحانات، هو جناية مخلة بالشرف في العالم الغربي، وهو في بلادنا سلوك طبيعي يتباهى به المرء، ويعد تعبيرا عن مدى براعته وشطارته. والانضباط في العمل وإتقانه، الذي هو إحدى سمات المجتمعات التي يشيع فيه الفجور والكفر على حد تعبير بعض الخطباء، هو في مقدمة القيم المهدورة في مجتمعاتنا المحافظة. والخيانة الزوجية التي يمكن أن تهز المجتمع، وتشيع فيه موجة عالية من السخط والاستنكار، بينما خيانة الأمة أصبحت تمر ويجرى تسويغها في أجواء اليأس والإحباط وإفساد الوعي العام...وهكذا.

ويضيف شيخنا الراحل محمد الغزالي إلى ذلك أمثلة أخرى، فالنيل من شرف البنت (وهو أمر مرذول بطبيعة الحال) تراق من أجله الدماء، أما العدوان على شرف الأمة (وهو أمر أشد خطورة من الأول) فإنه يقابل بقدر مذهل من الفتور والتسليم، كما أن جمهور المتدينين يعنى كثيرا بأداء الفرائض وبالالتزام في الهيئة والمظهر، بينما لا تحركه، أو يستنفره بأي حال نهب المال العام أو تزوير الانتخابات أو استشراء النفوذ!

وعندما سأل أحد المواطنين فقيها عن مبلغ من المال يملكه يكفى لأداء فريضة الحج، وعنده ابن يريد أن يتزوج، فأيهما أولى؟ كانت الفتوى أن الحج مقدم على الزواج، حيث لا يجوز

---

(24) أحمد كمال أبو المجد: حوار لا مواجهة، الكويت، كتاب العربي، العدد السابع، أبريل ١٩٨٥، ص ١٨٦.

(25) فهمي هويدي: مصر تريد حلا، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨، ص ٤٠.

تقديم فريضة على سنة، والفتوى صحيحة إذا كان الأمر مجرد مقابلة أو مناظرة، أو إذا جرى الحديث في المطلق، دونما تحديد بأي زمان أو مكان، أما إذا حاولنا أن نتزل الفتوى على زماننا، أو على مكان تمسك الأزمات بخناق أهله، فإن الأمر قد يختلف، وتغدو الفتوى بحاجة إلى إعادة نظر [٢٦].

٥ - الماضويـــــــة:

فإذا كان من المستحيل - كما فصلنا من قبل - أن تقطع أي أمة العلاقات مع ماضيها وتظل مستمرة في المحافظة على هويتها، إلا أن الاهتمام بالماضي لا ينبغي أن ينسينا التأكيد على المنطق، والكيفية التي نتعامل بها مع الماضي: هل نقف منه موقف الاستغراق والانسحاب إليه؟ هل نكسبه قداسة تعلو به عن النقد؟ هل لدينا القدرة على حسن الاختيار والانتقاء من موروثنا الحضاري؟

الحق أن المستقرئ لجملة الكتابات التي خرجت إلى النور طوال قرنين مضيا يمكن أن يلاحظ بكل سهولة ويسر أن درجة الالتفات إلى الماضي والاستغراق فيه، بل والانسحاب إليه أعلى كثيرا من درجة الالتفات إلى الحاضر، فضلا عن التطلع إلى المستقبل.

ولعل من أبرز ما يمكن أن يقال تفسيرا لذلك أنه قد طالت على أمتنا على مدى القرون سلسلة من الهزائم العسكرية والسياسية والثقافية دفعت بنا وبالفكر السائد بيننا إلى ألوان من صور الحروب والانطواء والانسحاب عزلة عن الآخرين، وزهدا في التواصل معهم والتماسا للأمن الموهوم بالتهوين من شأن الآخرين وإدانة سائر الأمم والشعوب والالتجاء إلى الماضي الذي كانت فيه أمجاد إعراضا عن المستقبل الذي هو الحقيقة الوحيدة التي تنتظر الأبناء والأحفاد، وأقيم نسيج ثقافي مغلوط جوهره المبالغة في تمجيد الذات ونفى الآخرين وتشجيع العزلة والانسحاب وتقديم مبررات فرعية وعقلية لهذا المسلك الهروبي الذي لا يصلح به دين ولا تعمر به دنيا، ولا تؤدى به رسالة أمة كانت خير أمة أخرجت للناس ولا يربى به أبناء [٢٧].

بل إن كثيرين أحيانا ما يخطئوا قراءة التاريخ. إن التاريخ أحداث ومناخ، وكثيرا ما يروى لنا الرواة الأحداث دون أن ينقلوا لنا المناخ، وهو ما اصطلح على تسميته "بالسياق المجتمعي

---

(26) فهمي هويدي: أزمة الوعي الديني، ص ١٠٤.

(27) أحمد كمال أبو المجد:حوار أم صراع؟ في (الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري)، القـــاهرة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سلسلة قضايا إسلامية (العدد ١٥)، ١٩٩٦، ص ٥٢.

العام"، وفى الروايات كثير أو قليل من الضباب، ولذلك فإن اعتماد المصلحين على تاريخ الأحداث المحاط بالضباب، والخروج منه بعبر غير صادقة أمر يمكن أن يؤدى إلى كوارث، وإنه ليحدث هذه الأيام حين نسمع كثيرين ممن يتعرضون للعملية الإصلاحية يسقطون أحداثا تاريخية على واقع مخالف فينتج عن ذلك وهم كبير، وكثير من الجماعات الضالة تقرأ التاريخ الإسلامي بهذه الطريقة ويستخرجون منه مواقف مهلكة [٢٨].

ثم إن الافتخار بإنجاز الأجداد، والهروب إلى ملاجئهم والاحتماء بها، دون قدرة على تعددية الرؤى وصناعة الحضارة، هو في الحقيقة صورة من صور التوبيخ لأنفسنا، ولون من الإصابة التي تعنى أول ما تعنى، أن هذه الأمة قد أحالت نفسها إلى التقاعد، وأصبحت تستهويها قصص الماضي، والذكريات التي تستردها لتزجية الوقت وشغل الفراغ، وهى بذلك تقع خارج الزمن بأبعاده الثلاث: الماضي والحاضر والمستقبل، وأنها لو أدركت ماضيها، واستوعبته، وكانت ابنا شرعيا له، لصنعت الحاضر واستشرفت آفاق المستقبل [٢٩].

من هنا فإن البعض يشكك في انتسابنا للماضي، مؤكدا أنه لون من الانحياز العاطفي الذي لا يسمن ولا يغنى من جوع، وإلا، فما الفرق بين ما يجانب الماضي ومن ينتصر له، إذا كان الإثنان يعيشان خارج الماضي والحاضر والمستقبل؟ ولعل الكثير من معاركنا وصراعاتنا التي نعنون لها بالتراث والمعاصرة، تدور في الحقيقة خارج الماضي، وخارج الحاضر معا، فلا التراثي استفاد من زاد التراث واستطاع توظيفه بشكل صحيح، مما يمكن مساعدته في حسن التعامل مع الحاضر، ولا المعاصر أدرك مقتضيات العصر وأحسن التعامل معه، حتى يعي ما يمكن أن يستدعيه من الماضي أو يتركه [٣٠].

وفى ظل هذا الوضع وقع البعض في هوة المواجهة والانفصام بين "الموروث" و "الوافد"، والحاصل أنه على مدى القرن الأخير، لم يعمق الصدع فقط بين الموروث والوافد من المؤسسات والنظم والأفكار والقيم، إنما كفتا الميزان تتجهان باطراد نحو التعادل، إذ كان الموروث يقل حجما ويضيق نطاقه، كان الوافد يزداد حجما ويتسع نطاقا، والعكس صحيح، وقد قاما معا قيام التعارض والتصارع، وبهذا اتجهت الحصيلة العامة للقوى الاجتماعية نحو التناقض والاضمحلال، فمع اتجاه المتنافيين إلى التساوي اتجهت الحصيلة إلى

---

(28) سيد دسوقي حسن: دراسة قرآنية، ص ٤٣.

(29) محمود محمد سفر: دراسة في البناء الحضاري، الدوحة، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينيـــة، سلسلة كتاب الأمة، ١٩٨٩، ص ١٢.

(30) المرجع السابق، ص ١٣.

نقطة الصفر، وهذا يتضح بشكل كبير بمدى قدرتنا على مقاومة المستعمرين والغزاة ومدى قدرتنا على النهوض بالناس، فرغم ارتفاع الصوت والجلبة، تزداد قوانا في هذين المجالين ضمورا وتهافتا [٣١].

وقد ترتب على كل هذا أن أكثر القضايا الفكرية والاجتماعية التي كانت معلقة في الفكر الإسلامي والحياة الإسلامية لا تزال على حالها لم يتقدم البحث فيها كثيرا، فالعلماء مترددون في الاجتهاد، وأكثر المفتين يؤثرون السلامة بالوقوف عند السوابق العديدة، ويدورون في كتب الفقه لا يريدون أن يتجاوزوها، والمسافة بين العالم الذي تصوره وتعالج مشاكله أكثر هذه الكتب، وبين الواقع الحي الذي يعيشه الناس بكل ما فيه من تطلعات ومشاكل وهموم تتسع يوما بعد يوم، والقضايا هي هي: المرأة ومكانها في المجتمع، وحدود حقها في العمل والاختلاط بالرجال. المؤسسات الاقتصادية والمصرفية، التأمين، حدود الاستمتاع بالموسيقى والغناء، وأكبر من ذلك وأخطر، معالم التنظيم الاقتصادي والسياسي للجميع وما يتطلبه في شأنها الإسلام [٣٢].

٦ - الخطاب الإسلامي:

كان من شأن جملة الأوضاع التي أتينا على الإشارة إليها، وهناك بطبيعة الحال غيرها مما لا يتسع المقام لذكره، أن أحيط العقل الإسلامي بمناخ غير نقى تنفسه، وأنه يغذى تغذية غير سليمة، مما كان لابد معه أن يجئ الخطاب الصادر عنه مثقلا بعدد من أوجه القصور والسلبية، جعلته قاصرا عن القيام بدوره المنوط به في التنوير الديني، وربما قام بعكس ذلك، فجر بهذا العديد من الدواعي التي مكنت قوى المناهضة والمناجزة أن تحاربه وتشن عليه أعتى وأشرس الهجمات.

إن العقل المسلم يبدو في خطابه أنه يعانى من أزمة فكر لا أزمة عقيدة، فيما يؤكد عبد الحميد أبو سليمان [٣٣]. وعلى الرغم من الحلقات المفرغة من المحاولات الفاشلة للحلول والبدائل التقليدية، تاريخية كانت أم دخيلة، فإن رؤية الخطاب الإسلامي لا تزال غير واضحة، حيث يشوب هذه الرؤية خلط كبير بين العقيدة والفكر، وكأنهما شئ واحد لهما ذات الطبيعة والقداسة الأبدية، وقد ساعد على غبش الرؤية أمام الخطاب الإسلامي تلك

---

(31) طارق البشرى، مقدمته لكتاب سيد دسوقي حسن، مقدمات في البعث الحضاري، القاهرة، المكتب المصري الحديث، د.ت، ص ١٠.

(32) أحمد كمال أبو المجد: حوار لا مواجهة، ص ١٨٥.

(33) عبد الحميد أبو سليمان: أزمة العقل المسلم، ص ٥٠.

العوائق النفسية التي روضت العقل المسلم، فلا يجرؤ على إمعان النظر التحليلي في تراثه ومقدساته بالقدر والعمق المطلوب لكي يدرك كنهها وموضع اللباب منها، وأن يفرق بين ما هو مطلق وأساسي وما هو محدود وزمني، ولكي يدرك ما يتعلق منها بالجوهر أو ما يتعلق بالأداء والأسلوب، فقد شل ما غرسناه في أنفسنا من معاني الخوف والرهبة وانعدام الثقة بالنفس قدرتنا على النظر في أحداث الماضي وملابساته ونقائصه، ولذلك ظل العقل المسلم حتى اليوم أسير مفاهيم ومنطلقات أساسية تجعله حبيس أخطاء الماضي وانحرافاته دون القدرة على الفهم والتمييز وتصحيح المسارات والغوص في أعماق القضايا التي يواجهها وتحصيل اللباب من ورائها وبين ثناياها حتى تنطلق المسيرة راشدة واثقة باتجاه المستقبل.

ولعل من مظاهر الخلل في الخطاب الديني، هذا الاضطراب والخلط في الأوراق، فمن أبجديات المنطق الأولى أن الحكم على الشيء فرع من تصوره، وأن من أبرز سمات العصر الذي نعيشه تقسيم العمل والتخصص، بل التخصص الدقيق في فروع المعرفة الواحدة ليكون بعد ذلك الإنجاز والإتقان، ومن ثم الوصول إلى فجائيات الإبداع. أما في أمة الخطاب المعتل، فلا يزال الرجل الملحمة الذي يدعى أنه يفهم في كل شئ هو الشخص المميز، ولا نخشى أن نقول هنا بأن مثل هذا الادعاء في هذا العصر يعنى أن صاحبه لا يفهم في شئ، فكثير من المشتغلين بالقضية العلمية التجريبية يقتحمون ساحة التخصص الشرعي الدقيق، التي لا يبلغها إلا من أفنى عمره في بحثها. وعلى الجانب الآخر يرى بعض المشتغلين بالأمور الشرعية والفقهية يصرون على اقتحام ساحات العلوم التجريبية الدقيقة، التي يقتضي إدراك بعضها عمر فرد وعمل أفراد، ظنا منهم أنهم بذلك يحسنون أداء رسالتهم، أو الارتقاء بوسائل دعوتهم، وتحضير الأمة لممارسة دورها الحضاري المفقود [٣٤].

ومن سلبيات هذا الخطاب العجز عن إقامة علاقات من المودة والحوار مع سائر عناصر المجتمع وتياراته. إن منهج "من ليس معنا فهو ضدنا" يحصر دعاة الإسلام ومربيه في دائرة ضيقة مغلقة، وقد يتطور عن أصحابه من مجرد تقصير في الاتصال بالآخرين إلى نوع من الخصومة العامة مع المجتمع، وهذا مدخل من أخطر مداخل الانحراف في فهم الإسلام والدعوة إليه. ومن أخطر ثمراته أن يتصور أصحابه أنهم وحدهم "جماعة المسلمين"، وأن الخارج عليهم خارج على المسلمين [٣٥].

---

(34) محمود محمد سفر: دراسة في البناء الحضاري، ص ١٣.

(35) أحمد كمال أبو المجد: حوار لا مواجهة، ص ١٨٤.

إننا لا نريد أن نفتح باب الحديث الطويل في هذه الآونة وإنما نقول في كلمات موجزة أنه لم يعد من حق أحد أن ينصب نفسه مسيطرا على الناس باسم الإسلام يقضى فيهم بالطرد من رحمة الله، ولهذا لا نشجع أبدا وصف مجتمع معاصر بأنه "مجتمع جاهلي"، إذ الناس من حولنا بشر يصيبون ويخطئون وحسابهم على الله، والجاهلية وصف يتجزأ في الأفراد والمجتمعات، كما ورد في قول رسول الله r لأبى ذر "إنك امرؤ فيك جاهلية" (٣٦).

وخلط الخطاب الديني عند كثيرين بين عالم الغيب وعالم الخرافة، فأفرز كما كبيرا من الكتابات التي تملأ عقول الناس بأوهام وتسلسلهم إلى مجالات وفترات تقطع الصلة بينهم وبين الواقع المعاش وقضاياه ومشكلاته. والمشكلة أن هذه الكتابات كثيرة ومنتشرة انتشارا غريبا. ولقد عن للكاتب المعروف فهمي هويدي أن يقوم بفحص عينة من على أحد أرصفة القاهرة حيث تباع كتب من هذا النوع، فسمع من الموزع أن متوسط ما يطبع من الكتاب في المرة الواحدة يتراوح بين ١٠٠ و١٥٠ ألف نسخة، وهو رقم توزيع لم يبلغ ربعه أي كتاب جامعي. وتخير كاتبنا، في وقفة واحدة أحد عشر كتابا من المطبوعات المرصوصة على الرصيف عناوينها كالتالي (٣٧):

القيامة رأى العين، للشيخ محمد محمود الصواف - عذاب القبر ونعيمه، لعبد اللطيف عاشور - أهوال يوم القيامة، لعبد الملك كليب، وكانت هناك طبعتان متجاورتان من الكتاب، إحداهما صادرة من القاهرة، والثانية من الكويت - الاستعداد للموت وسؤال القبر، من تأليف زين الدين بن على المعبدي، من علماء القرن العاشر الهجري - يوم الفزع الأكبر، للإمام القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ بعد الموت، لإبراهيم محمد الجمل - كتاب الموت، سكرات الموت وشدته وحياة القبور حتى النفخ في الصور، للإمام الغزالي، دراسة وتحقيق عبد اللطيف عاشور - علامات الساعة الصغرى والكبرى، ومؤلفه ليلى مبروك - التداوي بالقرآن والاستشفاء بالرقى والتعاويذ، لمحمد إبراهيم سليمة - الطب النبوي لابن القيم - غرائب وعجائب الجن، للشيخ بدر الدين أبى عبد الله محمد الشبلي الحنفي، المتوفى سنة ٧٦٩هـ!!

كذلك روى هويدي ما حملته إليه رسالة تلقاها، أجهد صاحبها نفسه في حشد الأدلة والمرويات التي تثبت أن الكلب الأسود شيطان مخفي، وحمل إليه البريد بحثا آخر في أن شيوع

(36) المرجع السابق، ص ١٨٥.

(37) فهمي هويدي: أزمة الوعي الديني، ص ٥٤.

الفساد الراهن في الكرة الأرضية مؤذن بظهور المسيخ الدجال، ودليل يقطع بقرب قيام الساعة ونهاية العالم، وأن مثل هذا أصبح يتردد كثيرا بين المتدينين [٣٨].

وكان هذا عرضا جديدا بين المتدينين الجدد، إضافة إلى ما سبق أن أوردناه عن خلل في سلم الأولويات، حيث يشغل الخطاب الديني نفسه بالمقابلة بين الجلباب والسروال، والانحياز إلى الجلباب، ويقرر بعض أصحاب الخطاب الانحياز إلى الجلباب القصير، ثم قرر أن يتفرغ للدعوة إليه، وتحذير الناس من فتنة السروال، مغبة التشبه بالنصارى في أزيائهم، وغير هؤلاء آخرون لم يكفوا عن البحث عن مسألة قبض اليدين أو إرسالهما أثناء الصلاة، وغيرهم ممن أثار جدلا حول وضع ساعة اليد، وهل يكون في الرسغ الأيمن أم الأيسر...إلخ.

إن مثل هذا الخطاب إنما يعكس انفصالا مؤرقا بين الوعي والواقع، ويحمل في طياته دعوات للإبحار في عوالم مختلفة عن عالمنا، والانشغال بأمور لا تمت إلى همومنا من قريب أو بعيد.

وأخيرا، فقد اتخذ الخطاب الموقف الدفاعي في كثير من القضايا التي أثارها الآخرون معه وضده، والحق أن الأمة الإسلامية، ربما أكثر من غيرها، عانت كثيرا من العداء والكيد، فقد عودي رسولها وعودي كتابها وعوديت عقيدتها وشريعتها، وكانت، والحمد لله دائما منتصرة بفضل الحق الذي تحمله، إلا أن هذا الانتصار كلفها ويكلفها تضحيات جسيمة، فقد خاضت معارك مسلحة كثيرة في مسيرتها التاريخية، كان آخرها تلك التي خاضتها من أجل حريتها وإجلاء المستعمر الغاصب عن أراضيها، وكانت في معظمها منتصرة، إلا أن أعداء الإسلام حينما تيقنوا من عجزهم عن الانتصار في المعارك المسلحة ابتكروا استراتيجية جديدة تحت ما يسمى بالسياسة المسلحة فأكثروا من الدس والكيد وقذفوا بمئات الاتهامات والأباطيل تنال من الإسلام ومن رسوله [٣٩].

وترتب على هذا أن علماء الأمة هبوا للدفاع وإبطال تهم الأعداء، فنشأ ما يسمى بالخطاب الدفاعي الذي استهلكت فيه طاقات عقلية وفكرية هائلة وألهى فيه منظرو الأمة عن مشاغلها الحقيقية فتأخرت في بنائها الداخلي.

٧- التشدد والغلو في الدين:

فمجتمعاتنا الإسلامية تعاني منذ عدة سنوات من ظاهرة التشدد والغلو في التفكير والسلوك الدينيين، إلى الدرجة التي حولته لدى البعض إلى عنف مسلح، جر على الإسلام

(38) فهمي هويدي: حتى لا تكون فتنة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٩، ص ١٧٠.
(39) محمد الوكيلي: فقه الأولويات، ص ٣١.

والمسلمين من الويلات ما قد يعز على الإحصاء في الوقت الحاضر، والملاحظ في أمر التشدد والغلو مظاهر أربعة [٤٠]:

- إن التشدد آفة عرفتها المجتمعات الإسلامية قديما، متمثلا في الخوارج وفهمهم المغلوط للدين، وحديثا، في الجماعات المتشددة، غير أن تأثير التشدد قديما كان محدودا، والفتنة كانت محصورة، بعكس ما هو ظاهر الآن من انتشار موجات تطرف في مجتمعات إسلامية، وبخاصة بين الشباب، حتى لقد وصل الأمر في بعض المجتمعات إلى صدام دموي بين الجماعات نفسها، وكذلك بينها وبين الأنظمة.
- أن التشدد لو كان مقصورا على ثوابت الدين وأحكامه الأساسية وقضايا المجتمع الرئيسية في العدل والحرية والشورى، وفى التنمية والتحرر، لكان أمرا محمودا ومطلوبا، أما أن يكون التشدد في الفرعيات والخلافيات والتوسع في الحظر والتحريم، وشغل الناس بأمور جانبية، وإثارة المعارك حول الخلافيات العقيم، فهذا غير مقبول في الإسلام.
- أن التشدد لو كان مقصورا على أهله دون أن يتجاوز ذلك إلى فرضه على الآخرين، لما كان الأمر مثارا للاعتراض، بل قد يحمل في بعض الحالات على باب الورع، وأما أن يستخدم أهل التشدد سلطتهم ونفوذهم لفرض رأيهم دون اعتبار للآخرين، بل يتجاوزون إلى التشكيك في عقائد المخالفين لهم والتفتيش في ضمائرهم، فهذا خروج عن المنهج الحق [٤١].

وقد ارتبط التشدد والتطرف بنزعة تعصبية تذهب أحيانا إلى آماد بعيدة تحيل صاحبها إلى مكفوف عقل، وفى أحسن التقديرات إلى شئ مما يمكن تسميته "بالعور الفكري" الذي لا يرى إلا رؤية أحادية الجانب دائما، وكان من شأن هذا أن تشيع صور مثل[٤٢]:

= المناظرات غير العلمية، فعلى الرغم من أن المناظرات كانت في عصور الازدهار الفقهي تتخذ طابع البحث العلمي وتثرى الفكر الديني، ويظللها هذا الشعار الشهير الذي كررناه أكثر من مرة: رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب، إذا بمناظرات في

---

(40) عبد الحميد الأنصاري: حول التشدد الديني، في (رؤى إسلامية معاصرة)، كتاب العربي، الكويت، الكتاب (٤٥)، ٢٠٠١، ص ٢٣.

(41) المرجع السابق، ص ٢٢.

(42) صادق العبادي: الفكر الطائفي وأثره في انقسام الأمة، في: ندوة مستجدات الفكر الإسلامي المعاصر الرابعة، الكويت، ١٩٩٥، ص ١١.

السنوات الأخيرة تتحول إلى ما يشبه "حوار الطرشان" أو "عراك الديوك"، تبدأ وتنتهي من حيث بدأت دون أن تثرى الفكر، بل تترك آثارا شخصية تتمثل في خصومات وتهديدات.

= انتشار الأحكام الغريبة، فمن شأن تغلب التعصب على البعض ظهور الآراء والأحكام غير اللائقة بحق أتباع المذاهب الأخرى كتحريم الزواج من مذهب آخر، أو بطلان الصلاة خلفه، أو تكفير أتباع المذهب الآخر، أو اعتبار آراء الغير باطلة، ورأيه هو الصواب، وما إلى ذلك من الآراء التي عمقت الخلاف والشقاق بين أبناء الأمة في فترات طويلة.

= العمل بخلاف طريقة الأئمة في الاجتهاد، فعلى الرغم من أن أئمة الفقه والعلماء من السلف الصالح كانوا لا يرون قداسة لآرائهم، وكانوا يعتقدون بأن آراءهم اجتهادات عرضة للصواب والخطأ، وكانوا يحضون من يأخذ عنهم بأن يسلك سبيلهم في الاجتهاد، لكن الأتباع المعاصرين للنزعة المذهبية صوروا المذهبية على أنها التزام مذهب معين ولا يجوز أن يعمل بغير مذهبه وأحيانا عليه أن يقبل آراء المذهب دون مناقشة لها أو اعتراض عليها.

وإذا كان العالم الإسلامي، في مقابل هذه النزعة للتشدد والتطرف والتعصب قد شهد حركة "صحوة إسلامية" تبرأ من كثير مما عيب على هؤلاء، ومع ذلك فلم يسلم هذا التيار نفسه من بعض السلبيات، مهما كانت بسيطة، إلا أنها تضعف من فاعليته، ومن ثم فإن المراقب يمكن أن يسجل ثلاث ملاحظات على هذا التيار "الرشيد" (٤٣):

+ أن تيار الصحوة يتراوح في ممارساته العملية بين العمل للأهداف الأساسية والعمل لأهداف مرحلية أو بين الاستراتيجية والتكتيك، وفق المصطلح الشائع، ويؤثر هذا التوزع على ممارساته العملية التي يحاول أن يجسد بها مواقفه.

+ أن بعض المنتمين لتيار الصحوة محكومون لا شعوريا، في ممارساتهم بعقدة الأجنبي، وبجوهر منطق التغريب الذي ينطلق من تفوق الغرب، فتأتى ممارساتهم متأثرة بهذا المنطق، ومن أمثلة ذلك، إنشاء المدارس التي تعلم الأطفال العرب المسلمين العلوم المختلفة بلغة أجنبية، على حساب لغة قومهم، وإقامة المتاجر التي تخدم "المحجبات" وتحمل أسماء أجنبية، وتبيع بضائع أجنبية، وتنظيم مسابقات لفتيان يلبسون الأزياء الأجنبية في موضوعات إسلامية.

(43) أحمد صدقي الدجاني: الصحوة الإسلامية ومشاريع الهيمنة الأجنبية، في ندوة الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي، عمان، منتدى الفكر العربي، ١٩٨٨، ص ١٣٧.

+ أن بعض المنتمين لتيار الصحوة، أحيانا ما يتحولون بممارساتهم إلى "الانكماش" أمام وطأة ضغط التعامل اليومي المخالف لأفكارهم، وإزاء اتساع الخرق على الراتق فقد ينتهون إلى صورة من صور العزلة والانعزال.

٨ - التخلف العلمي والتقني:

فلقد ظل الغالب على معظم الدول الإسلامية عقود عدة من الزمان إهمال جسيم لدراسات العلوم والهندسة، وبإهمال هذه الدراسات ندرت الخبرات العلمية والتقنية، وبندرتها تخلفت الأمة، وبلغت نسبة العلماء والتقنيين إلى مجموع تعداد السكان في الدول الإسلامية حتى وقت قريب وضعا لا يكاد يذكر إذا قورنت بنسبتهم في الدول المتقدمة علميا وتقنيا، إذ تتراوح هذه النسبة بين ٢٠ في المليون (بنجلاديش) و١٩٠ في المليون (مصر)، بينما تراوحت عند غير المسلمين بين ٤٣٠٠ في المليون لدى مجموعة الدول الرأسمالية الغربية، و٨٢٠٠ في المليون لدى الدول التي كانت تنتظمها ما كان يسمى بالمجموعة الاشتراكية، وبلغ متوسط تلك النسبة في الدول النامية بصفة عامة حوالي ١٠٠ في المليون (٤٤).

وفى الوقت الذي كانت الدول الكبرى تنفق فيه ما بين ٢% و٤% من إجمالي ناتجها القومي على عمليات توظيف البحث العلمي من أجل التنمية فإننا نجد إنفاق الدول الإسلامية (كجزء من الدول النامية) لم يكن يتعدى ٠,٣%، على ضخامة الدخول القومية في الدول الكبرى وضآلتها في الدول النامية، وعلى ذلك فإن مجموع إنفاق الدول النامية لم يكن يمثل أكثر من ١،٦ من مجموع إنفاق دول العالم على عمليات البحث العلمي وتوظيفه في تطوير التقنية.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن قيام مختلف المؤسسات العلمية والتقنية في الدول الإسلامية المعاصرة على أنماط مستوردة قد أدى إلى غرابة هذه المؤسسات في بيئاتها وغرابة خريجيها، وإلى العديد من الحواجز الاجتماعية التي حالت بين هذه المؤسسات وبين تحديد أهداف واضحة لها، كما حالت بين قيام خريجيها بواجباتهم كاملة في مجتمعاتهم (٤٥).

وإذا كنا قد اعتمدنا في الأرقام السابقة على دراسة صدرت عام ١٤٠٩هـ، فإن دراسة أخرى صدرت عام ١٤٢١ هـ تؤكد جوانب أخرى من الصورة غير طيبة (٤٦)، فـ٨٥% من القدرة العالمية في العلوم والهندسة تقع في العالم الصناعي المتقدم الذي يمثل أقل من ٢٠%

(44) زغلول رجب النجار: قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، الدوحة، سلسلة كتاب الأمة (٢٠)، ١٩٨٨، ص ٢٦.

(45) المرجع السابق، ص ٢٧.

(46) إبراهيم بدران: حالة العالم الإسلامي وجدوى وضع سياسة متكاملة للتنمية التكنولوجية، في (نحو مشروع حضاري لنهضة العالم الإسلامي)، القاهرة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سلسلة قضايا إسلامية، ٢٠٠٠، ص ٦٨.

من تعداد سكان العالم، وإن ٩٥% من تمويل التقدم العلمي والتطوير التكنولوجي تقبع في ذلك العالم، وأن التقدم الذي أحرز في العالم نتج عن نشاط ما لا يزيد عن (٥) % من الباحثين على مستوى العالم، وفى الوقت نفسه فإن ٨٠% من سكان الأرض اليوم يعيشون في العالم النامي، والمسلمون يمثلون ربعهم، ينتجون من متطلبات التقدم أقل القليل، ويعيش الكثير منهم على استهلاك الوسائل والمنتجات النابعة من العقول المتقدمة، وقد حسب أن ٩٠% من سكان العالم النامي، ونحن منهم يتمتعون ب ١٠% من الإنفاق الصحي عالميا، والباقي (١٠%) يتمتعون ب ٩٠% من ذلك الإنفاق، والخطر الجسيم هنا يكمن في أن الكثير منهم يستهلكون ولا ينتجون،وينبهرون ولا يتنبهون.

وإذا انتقلنا إلى بعد أو أكثر من الأبعاد الكيفية للتعليم المعاصر، فسوف نجد تضاؤلا مستمرا للعناصر الأخلاقية والقيمية، وكذلك ضعفا مستمرا في الروح والتربية الروحية، وتعليم هذه فلسفته، لا يساعد المتعلم إلا على النمو بقدراته المادية فقط، وإن تم له ذلك، فإنه يتم على حساب طاقاته الروحية والنفسية، والتزامه الأخلاقي، وذلك يخرجه عن الفطرة الإنسانية السليمة المتزنة بين مادة وروح، جسد ونفس، عقل وقلب.وإنسان هذه حالته يشكل خطرا حقيقيا على نفسه وعلى الحياة كلها من حواليه. ويكفى الإشارة إلى مخزون القنابل الذرية والهيدروجينية والنيتروجية، وغيرها من وسائل الدمار الرهيبة التي يكدسها الإنسان اليوم بكميات متزايدة، تكفى لتدميره وتدمير كل منجزاته على هذا الكوكب، وربما كان ذلك أحد الأسباب الرئيسية لموجات الاضطراب النفسي التي يعيشها الإنسان المعاصر تحت تهديد هذا المخزون المتزايد من وسائل الدمار المختلفة [٤٧].

٩ - الإسفين الإسرائيلي في جسم الأمة:

فقد أصبح الاستيطان الإسرائيلي الصهيوني يمثل معينا لا ينضب، يفرز للأمة الإسلامية، ما لا يكاد يعد ويحصى من المشكلات والأمراض وصور التخريب والتدمير، على كافة الأصعدة، مما جعله يشكل القضية المركزية لكل هموم الأمة في وقتنا الراهن.

ففي يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ترامى إلى العالم من أقصاه إلى أدناه نبأ قيام دولة جديدة في فلسطين هي إسرائيل، وفى هذا الوقت كانت جراح الإنسانية التي أصيبت بها في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) ما تزال مفتوحة دامية، كان كثير من الأطفال في العالم ما يزالون بعد يجهلون إذا كان آباؤهم أسرى أو أنهم قتلوا وتركوهم أيتاما. وكان الدمار الذي

(47) زغلول رجب النجار: أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، د.م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨٩، ص ٢٣.

اكتسح أوربا والشرق الأوسط والأقصى ما يزال ماثلا للعيان، تكاد تفوح منه رائحة الدم والبارود. وكانت هيئة الأمم المتحدة التي أنشئت على عجل، لتتبلور فيها كل أحلام السلام والأمن والرخاء، تعيش حقبة وردية في صدور البشر بعد أعوام طويلة من القتال الرهيب [٤٨]، كانت الأمم المتحدة قبلة الأنظار وكعبة الآمال، وموضع ثقة الجميع وتفاؤلهم، ولم تكن الأمم المتحدة، وهى تتمتع بكل هذا الإعزاز وترى ضيق الناس بالحرب، واشمئزازهم من الدمار، قديرة على البحث بصبر وحذر في الأعماق البعيدة لمشاكل كانت تعتقد أنها، بتأييد الجنس والإذعان البشرى الذي كانت تتخيله مجمعا على طاعتها والرضوخ لحلولها، تستطيع أن تصنع المعجزات، وكانت دولة إسرائيل من هذه المعجزات الوهمية [٤٩].

وحقق وجود الكيان الصهيوني أملا جاش في صدور قوى الهيمنة والاستغلال، حيث كانت موقنة بأن جيوش الاحتلال في مختلف الدول العربية والإسلامية، إن عاجلا أم آجلا لابد لها أن تحمل عصاها وترحل، ووجود مثل هذا الكيان الاستيطاني العنصري العدواني، يمكن أن يحقق الآمال الصعبة الاستعمارية في استتراف قوى العالم العربي والإسلامي، فضلا عن تقطيع أوصاله.

وهكذا شهدت السنوات التي أعقبت قيام الكيان الصهيوني إضافة جديدة إلى قائمة (الحواجز) بين المسلمين وبين سائر الشعوب، وذلك بما لجأت إليه الدعاية الصهيونية داخل شعوب الغرب من إثارة فكرة "الميراث" اليهودي المسيحي المشترك "Judes Christisn Hertage لتتوصل به إلى ضمان انحياز الغريب شعوريا وعقائديا، ومن ثم سياسيا إلى جانب الدولة الصهيونية في صراعها مع العرب والمسلمين. وكان من ثمرات نجاح هذه الفكرة أن انحاز – وما يزال – الغرب شعوريا وسياسيا بالفعل إلى إسرائيل انحيازا أثر كثيرا على مسار الصراع السياسي بين المسلمين في المنطقة العربية وإسرائيل، ونشطت في ظل هذا الانحياز كنائس مسيحية كثيرة في الولايات المتحدة تبشر بما سمى "بالصهيونية المسيحية"، من منطلقات ظاهرها الاعتقاد المسيحي الديني، وحقيقتها الوقوع تحت تأثير أفكار ومصالح تروج لها وتدافع عنها دوائر صهيونية ذات جذور وعلاقات واسعة داخل المجتمع الأمريكي [٥٠].

---

(48) حسن ظاظا: إسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسلمين، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٣، ص ٣ .

(49) المرجع السابق، ص ٤.

(50) أحمد كمال أبو المجد: المسلمون والنظام العالمي المتغير، في (رؤى إسلامية معاصرة).

ولابد من الاعتراف بأن النظام الذي قام في المنطقة الإسلامية العربية في كافة مراحل تطوره قد أخفق في دحر المشروع الاستعماري الصهيوني في فلسطين، في البدء، ضاع أكثر من نصف فلسطين بإعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، وإخفاق العرب في وأد ذلك التطور في الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨، ولم يتبق من فلسطين سوى الضفة الغربية التي ألحقت بالمملكة الأردنية الهاشمية في عام ١٩٥٠، وقطاع غزة الذي أدير من قبل مصر، حتى ضاع كلاهما بدوره في حرب ١٩٦٧ (٥١).

ومع الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ حدث تحول إستراتيجي خطير في السياسة العربية تجاه إسرائيل، فقد ضاعت الأجزاء الباقية من فلسطين، وأدت فداحة الهزيمة، واحتلال إسرائيل لأراض تابعة للدول العربية الثلاث: مصر والأردن وسوريا، إلى القبول التدريجي بفكرة التسوية مع إسرائيل.

وعلى الرغم من النصر الشهير في حرب ١٩٧٣، لكن الكيان الإسرائيلي استطاع أن يئد فرحة النصر ويلتهم الكثير من مكاسبها، ويجبر العرب على الدخول في مشروعات تسوية، كسب العدو فيها أكثر مما خسر.

، وصدق د. القرضاوي بحق عندما قال أن الاغتصاب الصهيوني، والخطر الإسرائيلي أصبح بالنسبة للأمة الإسلامية والعربية هما كبيرا جسيما، يزداد كبرا وجسامة بمضي الأعوام، ذلك أننا ضعفنا وتخاذلنا إلى درجة مؤسفة، فخدعنا بحيث أصبحنا ندعوا إلى السلم في مواجهة قوم قام كيانهم كله على الحرب والعدوان، حتى حرف بعض منا كلم القرآن عن مواضعه، فزعم أنهم جنحوا للسلم، فلنجنح نحن لها، ولنتوكل على الله، وما جنح القوم لها يوما (٥٢).

إن المشكلة الكبرى في المواجهة هي أن العدو الإسرائيلي يواجهنا بدعوى دينية يهودية، لكن نظما إسلامية قائمة تلح دائما على أن المسألة سياسية عسكرية، ويسعى كثير من المفكرين العلمانيين إلى تبرير ذلك والتأصيل له. إنهم يحاربوننا من أجل الهيكل، ومن ثم كان من الضروري أن نحاربهم من أجل الأقصى. هم يقولون أنهم شعب الله المختار، لكننا نهمل قوله عز وجل في قرآنه المجيد: (كنتم خير أمة أخرجت للناس)، ومن هنا فقد افتقدنا التعبئة الإيمانية، فافتقدنا النصر.

.....

(51) أحمد يوسف أحمد: تحليل الواقع العربي من منظور المشروع الحضاري النهضوي، في: مجلة المستقبل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٢٦٩، يوليو ٢٠٠١، ص ٧٦.

(52) يوسف القرضاوي: الإطار العام للصحوة الإسلامية، في ندوة (الصحوة الإسلامية)، ص ٩٢.

ولعلنا بعد هذا نتوقف لحظة لنؤكد للقارئ أن وقفتنا الطويلة نسبيا أمام عوامل ضعف الأمة في واقعها المعاصر لم تكن صورة من صور جلد الذات، ذلك أن جلد الذات (السب واللعن) منهي عنه شرعا، لكن ما قدمناه هو صورة من صور نقد المسالك وتقويم الأعمال، ومناقشة الفعل التاريخي، وتحقيق الاعتبار، وتسديد المسيرة الإسلامية في ضوء ضوابط القيم الإسلامية وأخلاق المعرفة، المطلوبة شرعا، ومن ثم القدرة على تشكيل النظر، والتقويم الإيجابي لاجتهاد وفعل المخطئ، وهذا أحد الأدلة الموصلة إلى الصواب، وبذلك نحاول تجنب هذا الخطأ الذي تقع فيه كتابات إسلامية، بالتوجه فقط صوب العامل والتآمر الخارجي وحده، والنكوص على الدراسة والتحليل، ومعرفة السبب الذي سمح بتسلل هذا الخلل إلى واقع الأمة، والقابليات التي استدعته وسمحت بنموه وتفاقمه. ومن ذا الذي يقول إن المطلوب من أعدائنا أن يسهموا بنهوضنا، وأن توقف كيدهم وعدوانهم، شرط لانتصارنا؟ فالعدول عن تقويم الذات، وكشف الخلل، والتوجه صوب العامل الخارجي يعنى تكريس القابلية للتخلف والسقوط، وتمكين العامل الخارجي من أداء دوره المرسوم [٥٣].

الأصداء التربويـــة

عندما تمر الأمة بعدد من مظاهر الخلل البنيوي العام، فإن السنة الإلهية تقضى بأن تتبدى انعكاسات لهذه المظاهر في البنى الفرعية للمنظومة المجتمعية الكلية، والمعنى بها هنا "البنية التربوية"، بمعناها الكلى العام التي قد يطلق عليها البعض اسم "النظام التربوي" غير قاصدين بذلك المراحل المتدرجة للتعليم، وإنما جملة ما يقع في الدائرة التربوية من تنظيمات ومراحل تعليمية ومؤسسات وأفراد عاملين، وقواعد ومبادئ موجهة للعمل، ومنظومة الجزاءات، والمحتوى التعليمي...وهكذا.

وكما أسلفنا في الجزء السابق مباشرة، فقد يتساءل البعض: وهل يمكن أن نتعامل مع مظاهر الخلل والأزمة باعتبارها "مصدرا" للتربية الإسلامية؟ إن الإجابة السريعة على مثل هذا التساؤل تكمن في المقولة القائلة "وبأضدادها تتمايز الأشياء"، فنحن عندما نشخص ونرصد مظاهر مرض في جسم الإنسان، فإنما لكي نهتدي إلى صورة "السواء" التي لابد أن يكون عليها هذا الجسم.

---

(53) عمر عبيد حسنة: تقديمه لكتاب على المنتصر الكتاني: الصحوة الإســـلامية في الأنـــدلس اليـــوم، الدوحة، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، سلسلة كتاب الأمة (٣١)، ١٩٩٢، ص ٢٤ .

وإذا كنا نبحث عن أصداء ما عرضنا له من مظاهر أزمة الأمة الإسلامية على التربية على وجه العموم، فيجب الوعي بأن العلاقة هنا بين التربية والمجتمع ليست علاقة "خطية" تسير في اتجاه واحد، وإنما هي علاقة "تفاعلية"، بقدر ما تتأثر بما في الأمة من إيجاب أو سلب، بقدر ما يكون لها دورها المؤكد في التغيير أو حتى التعزيز والتكريس.

ونعود لنتساءل عن أصداء الأزمة المجتمعية للأمة في عالم التربية؟

١ - افتقاد الفلسفة التربوية العامة:

فنظم التعليم في العالم الإسلامي، تواجه جملة من الثغرات تضعف طاقة التعليم نفسه، ومن ثم في قدرته على إعانة الأمة "على كشف الغمة"!، من هذه الثغرات: افتقاد الفلسفة التربوية العامة، فمن المعروف أن فلسفة التربية هي التي ترسم الإطار العام الذي يوجه العمل التعليمي، ومن المفروض أن تبنى فلسفة التربية في العالم الإسلامي على العقيدة الإسلامية، لكن الواقع الذي عرضنا له ينبؤنا بأن الإطار الفلسفي التربوي العام شبه مفتقد، لا من وجهة النظر الإسلامية فقط، وإنما كذلك من وجهة نظر الفلسفات التربوية الكبيرة المعروفة، ويتحول الوضع إلى ما وصفنا "بالموزايك الفلسفي"، فهذا النظام يمكن إرجاعه إلى العقيدة الإسلامية، وذاك إلى الفلسفة البراجماتية، وهذا إلى الاشتراكية، وذاك إلى غير هذا وذاك من فلسفات.

ومن ذلك أيضا جمود هذه النظم وعجزها عن مسايرة التطورات الاجتماعية المتسارعة، فالوظيفة الاجتماعية للتربية معقدة أشد ما يكون التعقيد، وذلك لأن التربية من جهة خاضعة للمجتمع بتقاليده وقيوده وقيمه وإمكانياته، وإن لم يكن ذلك منطلقا من منطلق إنساني نبيل، كان أثره بليغا على العملية التربوية. ومن جهة أخرى، فإن التربية من أهم العناصر الفعالة في تطوير المجتمع، وهى في الوقت نفسه، أهم أداة للمحافظة على القيم السائدة فيه، وعلى توازن القوى العاملة فيه. ولا شك أن افتقاد الفلسفة التربوية الموجهة، يؤدى في غالب الأحوال إلى إضعاف القدرة لدى النظام التعليمي أن يوازن بين ما هو مطلوب في كل اتجاه من هذه الاتجاهات بالنسبة لوظيفته الاجتماعية [٥٤].

ومنها أيضا التمييز بين التعليم العام والتعليم التقني، إذ تقوم النظم التعليمية المعاصرة في معظم دول العالم الإسلامي على الفصل بين التعليمي، ويعتقد أن ذلك كان من آثار العصور الوسطى الأوربية حيث كان التعليم العام للسادة، والتعليم التقني للعوام من الشعب، وقد أدى ذلك إلى التمييز بين الناس بغير حق، وضاعف من حدة التكتلات الطبقية في المجتمع

(54) زغلول رجب النجار: أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، ص ٤٧.

الواحد وزاد من أحقادها، كما أنه حرم بعض الأفراد من متابعة الدراسة حسب ميولهم واستعداداهم ودفع بالبعض الآخر إلى مجالات لا رغبة لهم فيها، مما أدى إلى زيادة نسبة الفاشلين، وحرمان المجتمع من مهارات كان من الممكن أن تنبغ لو وجهت التوجيه الصحيح (٥٥).

٢- التعليم..حصان طروادة:

فلقد اعتمد أعداء الإسلام على التعليم كحصان طروادة، للتغلغل من خلاله إلى العقل الإسلامي والثقافة الإسلامية، وكان ذلك باعتماد استراتيجية تقوم على فك العقل الإسلامي وإعادة تركيبه وصياغته من جديد لصالحهم وعلى هواهم، بعد أن فشلت الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها في القرون الوسطى، وكانت المدارس الأجنبية والتبشيرية هي الساحة الحقيقية التي خاضت فيها قوى الاستعمار وإرساليات التبشير، معركة فك العقل الإسلامي وإعادة تركيبه مرة أخرى (٥٦).

ولم تعد هذه المرحلة سرا خافيا على أحد، فقد سرد تفاصيلها في مذكراته اللورد كرومر - مثلا - وهو أشهر معتمد بريطاني في تاريخ مصر (٥٧)، فضلا عن أن كتاب (غزو العالم الإسلامي) الذي هو في حقيقته ترجمة لعدد خاص من مجلة "العالم الإسلامي" التي كانت تصدر في فرنسا في بداية هذا القرن وتنطق باسم حركة التبشير الكاثوليكي، هذا الكتاب يقول فيه مؤلفه مسيو أ.شاتليه، بمنتهى الصراحة والوضوح، إن الغرض الذي نتوخاه لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق التعليم.

وما حدث في مصر هو ذاته الذي حدث في سوريا ولبنان والمغرب العربي والهند وتركيا وإيران.. المنهج واحد هو: غسل المخ والنفاذ إلى العقول المسلمة، ولقد كان التعليم هو وسيلة التدمير..، فقد شكا أحد الباحثين (٥٨): "إن سيطرة أوربا الثقافية لا تزال تحتل المركز الأول في حياتنا العقلية وثقافتنا الوطنية، ومناهج تفكيرنا، فكيف تريدون أن تخلق تلك المدارس مواطنين صادقين يتحلون بالنزعة الوطنية الصادقة والإحساس العميق؟

---

(55) المرجع السابق، ص ٥٩.

(56) فهمي هويدي: القرآن والسلطان، ص ٥٠.

(57) سعيد إسماعيل على: دور التعليم المصري في النضال الوطني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٩٤، صفحات متفرقة.

(58) محمد الغزالي: ظلام من الغرب، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٧٩، ط٣، ص ١٥٠.

إن الوطنية الصادقة والإيمان القومي لا ينبثقان إلا من اللغة وآدابها، ومن التاريخ والتربية الوطنية، فكلما درس الناشئ لغته كلما أحبها وآمن بقدرتها على الحياة والخلود، وكلما عرف تاريخ بلاده ازداد تعلقا بها وإيمانا بكرامتها. لقد دخلت البعثات الأجنبية بلادنا منذ قرن، وهي تحمل رسالة تبشيرية استعمارية فاتخذت العلم ستارا لها وأصبحنا أمام مدارس إيطالية وفرنسية وإنجليزية وألمانية وروسية وأمريكية مسئولة عن التبلبل الفكري والقومي الذي نراه بيننا، أحيت العصبيات الطائفية، أو حنطتها حتى جعلت تفكيرنا، ومصالحنا المشتركة، ووحدتنا الاجتماعية رهينة هذه النزعات الملية، وحتى اضطرت المخلصين من أهل البلاد إلى إنشاء معاهد تقاوم هذا التيار الأجنبي الجارف، وتقف في وجهه لتحفظ على قسم كبير من أهل البلاد دينهم وعروبتهم وتاريخهم، فكانت هذه المؤسسات نفسها تبشيرية وطنية، وظلت في نزاع عقائدي وثقافي، مع المعاهد الأجنبية حتى يومنا هذا".

ثم ينتهي إلى القول: "لا ينبغي أن نفرح بجلاء الجيوش عن بلادنا، بل يجب أن نبتهج ونفرح بجلاء المعاهد الأجنبية عن تفكيرنا وأرواحنا، فالجلاء عن الفكر والروح هو الجلاء الحقيقي..."

وقد أعطى الاستقلال الوطني القومي للدول الإسلامية قوة دافعة لنظام التعليم العلماني اللاديني فيها حيث تم تعزيزه وتبنيه وضمان استمراره نظاما أساسيا بإغراقه بالأموال، كما تم أيضا توسيع وزيادة علمانية النظام باسم القومية العنصرية والوطنية الإقليمية، وتمضى القوى الداعية إلى المنهج الغربي والعلمانية، مع ما يرافق دعوتها هذه من إبعاد للطلبة والأساتذة عن جذورهم وحضارتهم الإسلامية، بالعمل بكل طاقاتها وحريتها في الكليات والجامعات دون أن يتخذ أي إجراء يؤدى إلى إيقاف هذا الانحراف [٥٩].

وحرصت مؤسسات التعليم المسكونة بالاتجاهات والقيم الأجنبية، سواء كانت مؤسسات وطنية أو أجنبية على أن تقوم بالمهام التي تصورت أن من شأنها أن تقوض أركان النموذج الحضاري الإسلامي [٦٠].

وكان نتيجة هذا الجهد الاستعماري المخطط أن انفصلت معظم المجتمعات المسلمة عن روافدها الثقافية والحضارية، فتقلصت حيوية هذه الثقافة الإسلامية بانعزالها الكبير عن مجرى الحياة العام، وعجزها عن التفاعل مع متطلبات المجتمع الملحة والمستمرة، فاستحالت حضارة

---

(59) المعهد العالمي للفكر الإسلامي: إسلامية المعرفة، ص ٣٢.

(60) حسان محمد حسان: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، ١٤٠١هـ، ص ٥٠.

الإسلام الشاملة العريضة إلى مجرد نصوص جامدة تدرس في سلبية وانعزال، دون أن يحس الدارس بأثرها في نفسه، أو يشعر المجتمع بحاجته إليها، خاصة وهو يجد حاجته العاجلة في البديل الفاعل الذي أرسى المستعمر دعائمه، ونجح بذكائه في التمكين له في حياة الناس، بحيث أصبح الحديث عن تراث الماضي وجذور الشخصية وما إليها أقرب إلى التباكي على لبن مسكوب، أو التحسر على ماض أثير قد ولى إلى غير رجعة (٦١).

٣- الازدواجية التعليمية:

فطوال عدة قرون، وقبل أن يبتلى العالم الإسلامي بالاستعمار الغربي، كانت معاهد التعليم تعيش ثقافة متجانسة هي الثقافة الإسلامية، وفى عصور الازدهار الحضاري، ظل عالم الإسلام يتعامل خلال تجربته الثرية مع ثقافة موحدة، ذات تخصصات مختلفة، فابن سينا الفيلسوف الطبيب، والرازي الصيدلاني، وابن الهيثم عالم الفيزياء والبصريات، والغزالي الصوفي المتكلم، والجاحظ الأديب، وأبو حنيفة الفقيه، والشريف الإدريسي الجغرافي..وغيرهم، هؤلاء جميعهم نهلوا من منابع الثقافة الإسلامية، وإن تخصص كل منهم في فرع أو علم (٦٢).

لكن حالة الجمود والتخلف التي وقع العالم الإسلامي في براثنها، كما نلاحظ بصفة خاصة في القرنين السابع والثامن عشر، غيبت مثل هذه الروح، فكان ما كان عندما بدأ الاحتكاك الحضاري مع الغرب، وظهر عجز مؤسسات التعليم القائمة عن التعامل مع المتغيرات الجديدة، وبدأ ظهور مؤسسات تعليمية مدنية على النمط الغربي الحديث.

وكانت قسمة التعليم إلى ديني ومدني بداية انشطار تعليمي ترتب عليه انشطار في العقل والتفكير في العالم الإسلامي، فالتعليم الديني كان قد أصبح قائما على مخلفات بالية أو قشور من الفكر الإسلامي واللغة العربية، ويحرم من دراسة العلوم الحديثة أو يأخذ منها أنصبة تافهة، ويكتفي في هذا التعليم المحدود بحفظ القرآن كلا أو بعضا، وبدراسة العلوم الشرعية واللغوية على نحو سقيم، ويوزع خريجو هذا التعليم على نواح جانبية من المجتمع الإسلامي ريثما يتم الخلاص منهم ومن قصورهم الملحوظ. أما التعليم المدني فتتوافر فيه دراسة الكون والحياة، وتتسع فيه الدراسات الإنسانية المجردة، وربما حصل الطالب المسلم على أنصبة ضخمة من هذه المعارف المحترمة تساوى ما يحصل عليه زميله في موسكو أو لندن، أما العلوم الدينية والعربية، فإن الطالب لا يكلف بها، ولا يتناول أنصبة محترمة منها، وإذا قدم له شئ

(61) عون الشريف قاسم: الإسلام والثورة الحضارية، بيروت، دار القلم، ١٩٨٠، ص ٣٩٥.

(62) فهمي هويدي: التدين المنقوص، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٦، ص ١٤.

تحت ضغط ظروف معينة فذرا للرماد في العيون، ويكاد التعليم الثانوي والجامعي أن يقفر كل الإقفار من المعرفة الإسلامية النافعة [٦٣].

ومن ثم فإن الازدواجية التعليمية التي حدثت، أصبحت بمثابة تأسيس وتثبيت لذلك الحاجز المقام بين الدين والدنيا، وهى قسمة أفرزت ثقافتين متباينتين، إحداهما تتعامل مع الدنيا بمختلف مجالاتها، والثانية تتعامل مع الآخرة بتنوع أبوابها، وهو ما اعتبر – بحق – ضربة قاسمة للثقافة الإسلامية وللدين نفسه، أبعدت الدين عن الحياة والحياة عن الدين، وهكذا بقى الازدواج الذي هو أصل البلاء، وبقى ما ينتج عنه وجود عقليتين مختلفتين، وتكوين فئتين من المثقفين بثقافتين مختلفتين، إحداهما دينية، ولكنها قديمة في تفكيرها وأسلوبها عقيمة في طريقتها منعزلة عن الحياة ضعيفة التأثير فيها، والأخرى مدنية أو علمانية أو لادينية، ولكنها غنية في تفكيرها، جديدة في أسلوبها، متصلة بالحياة ومشكلاتها، ممسكة بزمام التوجيه الفكري والاجتماعي والسياسي، فيما قال العالم الإسلامي الراحل محمد المبارك [٦٤].

ومن هنا فقد تعددت محاولات التقريب بين التعليمين، وكان النموذج الكبير لهذا ما تم بالنسبة للأزهر في مصر بصدور قانون تطويره عام ١٩٦١، والذي بموجبه تقرر إدخال المزيد من العلوم الحديثة، وكان أبرزها تعليم اللغات الأجنبية، وإنشاء كليات غير تلك الكليات التقليدية التي كانت قائمة (أصول الدين، الشريعة والقانون، اللغة العربية) فأنشئت كليات طب وعلوم وزراعة...إلخ

لكن التجربة لم تكن موفقة، فالكليات "الحديثة" لم تعد إلا صورة مكررة من الكليات القائمة في الجامعات الأخرى المدنية، ولم يكن من المتصور أن "أسلمة" هذه النوعية من الكليات تكون بمجرد إضافة قدر من العلوم الشرعية عامة، بل كان المأمول أن تقدم بصيغة مختلفة، تقوم على القيم المستمدة من الشريعة وتستهدف مقاصدها، ومن ثم فإذا بالثقافتين: الدينية والمدنية يظلا وكأنهما خطان متوازيان لا يلتقيان، وكأن هذا "عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج"!!

إن القرآن وما يتصل به من علوم ومعارف ليس مجرد مادة علمية يكتفي الناس بتضمينها جدول الحصص ويعالجونها في عدد من هذه الحصص قل أو كثر كواحدة من التخصصات الكثيرة التي يحفل بها المنهج الدراسي، وإنما القرآن وما يتصل به من سنة نبوية ودراسات إسلامية وعاء لحضارة شاملة تضم في رحابها كل المرتكزات الاجتماعية والثقافية والتشريعية

(63) محمد الغزالي: ظلام من الغرب، ص ١٥٧.

(64) عن: فهمي هويدي: التدين المنقوص، ص ١٠٤.

التي قام عليها صرح مجتمعنا، واعتمد عليها بناء الفرد والجماعة لما يقرب من أربعة عشر قرنا من الزمان. وقد كانت كل المعارف الأخرى دينية أو دنيوية تنطلق في سماحة ويسر من هذه القاعدة القرآنية الحضارية وتتفاعل معها ومع بعضها البعض لإثراء حياة المجتمع المسلم في كل أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية، وبذلك كانت روح الحضارة الإسلامية المنبثقة من القرآن والسنة تسرى في كل مجالات الحياة الإنسانية، وتوجه كافة التخصصات العلمية والعملية، وتعبر بذلك عن وحدة المجتمع ووحدة الثقافة ووحدة الشخصية المسلمة، وكان ذلك ينعكس على الطب والهندسة والأدب والفقه والفلسفة والفن وما إليها من معارف، فكانت كلها روافد غنية من روافد الحضارة الإسلامية المتكاملة دنيا ودين، وبذلك ازدهرت هذه الحضارة وبلغت أوج عظمتها فيما لا يزيد عن قرن من الزمان منذ نشأتها وظلت قوية متماسكة في كل عصور الظلام والانحطاط تحفظ للمجتمعات المسلمة كينونتها، وتمنحها قدرة ذاتية فائقة على مواجهة كل محاولات الإذابة والتشويه التي تعرضت لها حضارة الإسلام في ماضيها القريب والبعيد [٦٥].

٤ - تشوه التربية الدينية:

فمن المسلمات التي يقوم عليها الكتاب الحالي، أن البنية الذاتية للشخصية المسلمة عندما تكون على أقصى قدر ممكن من الاستقامة والسوية والقوة والصحة الدينية السليمة، فإن العديد من القوى والعوامل الأخرى التي تأتى من خارج مستهدفة الأمة، تكون قادرة على هزيمتها والمضي قدما في بناء المجتمع الإسلامي المنشود، وهو الأمر الذي تحقق بالفعل في صدر الإسلام.

والذي شهد به تاريخ كثير من المناطق الإسلامية أن الإسلام لم ينتشر فيها نتيجة لمساع مبذولة منظمة تسعى لتدعيم دعوته وتعزيز أركانه واستحكام عراه، وغاية ما في الأمر أن جاء إلى قرية من القرى أو مدينة من المدن رجل مسلم من أهل العلم والمعرفة فدخلت طائفة من الناس في الإسلام على يده، أو جاء إليها تاجر من التجار المسلمين فأسلم عدد من الناس بسبب الاختلاط به، أو نزل بها رجل ورع من أنزه المسلمين سيرة وخلقا وعشرة، فتأثر الناس بسمو أخلاقه ونزاهته وصفاء حياته، فقبلوا الإسلام ودخلوا في كنفه، إلا أن هؤلاء الأفراد لم يكن بأيديهم من الوسائل ما يساعدهم على العناية بتعليم الذين أسلموا على أيديهم وتربيتهم وتلقينهم مبادئ الدين وأصوله، ولا كان يهم الحكومات المسلمة القائمة

(65) عون الشريف: الإسلام والثورة الحضارية، ١٥٧.

وقتئذ أن تعنى بتعليم هؤلاء المهتدين وتربيتهم حيثما انتشر الإسلام ودخل الناس في حظيرته بمساعي هؤلاء الأفراد المنفردين [٦٦].

وكان من جراء هذه الغفلة أن ظل ملايين المسلمين في تلك المناطق سادرين في الجهل والجاهلية منذ أول أمرهم، أما المعاهد الدينية التي شهدتها تلك مثل تلك المناطق، فما استفاد منها في معظم الأحوال إلا الطبقات العليا والوسطى، وظل الدهماء في جهل غالب بتعاليم الإسلام، محرومين من آثاره الإصلاحية إلى حد كبير. وقد سبب هذا كله أن كان الناس من غير المسلمين يدخلون في دين الله شعوبا وقبائل، إلا أن كثيرا من الرسوم الباطلة، والعادات الجاهلية، مما كانوا عليها قبل إسلامهم، استمرت متفشية بينهم [٦٧].

وإذا كان هذا الذي عرضنا له مما يصور الحال في بعض مناطق في الهند والصين وإفريقيا، فإن حال التربية الدينية في بلدان عربية إسلامية، لها تاريخها العريق في التعليم الديني، له أوجه قصور أخرى، فهناك شباب، وجمهور المتدينين الذين تضاعفت أعدادهم في السنوات الأخيرة لم يتح لهم أن يتلقوا أي قدر من الثقافة الإسلامية يحصنهم ضد مختلف أشكال التلوث الفكري. وإذا قلنا أن مناهج التعليم يمكن أن تسهم إسهاما جادا في تغذية الشباب بمثل هذه الثقافة، فمما يؤسف له بأن مناهج التعليم العالي على سبيل المثال في كثير من البلدان العربية والإسلامية خالية مما يمكن أن نسميه ثقافة إسلامية، وفى التعليم العام بعض الحفظ، وبعض دروس العقائد والفرائض، وغير ذلك من الدروس الهامشية التي لا تنير عقلا ولا تبصر فؤادا، ولا تشبع رغبة في المعرفة الحقة [٦٨].

والمساجد أغلبها عاجز عن أداء دوره التثقيفي لأسباب عديدة، بعضها يتعلق بتدهور مستوى الدعاة من خريجي الجامعات والكليات والمعاهد الدينية، والقادر من هذه المساجد غير مُمكن من أداء ذلك الدور بسبب المخاوف الأمنية، ووسائل الإعلام الأخرى يقدم أكثرها غذاء هزيلا يشبع "الدراويش"، ولا يصنع المسلم الواعي الذي نفتقده.

وفى غيبة مؤسسات أهلية للتربية الإسلامية الرشيدة، فإن الشباب المسلم وجمهور المتدينين يتوزعون بين ساعين إلى توفير هذه الثقافة المطلوبة بشدة في زماننا، عبر الجهود الذاتية، إذ يحاول كل راغب في الاستزادة والتعلم أن يسد هذه الثغرة بوسائله الخاصة، فيقرأ ما يقع

---

(66) أبو الأعلى المودودي: واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢، ط٥، ص ١٠٦ .

(67) المرجع السابق، ص ١٠٧.

(68) فهمي هويدي: أزمة الوعي الديني، ص ١٨.

تحت يديه من كتب، ويفهم محتواها على أي نحو كان. وإذا انتبهنا إلى أن الكثير من كتب التراث بحاجة إلى تنقيح وتصحيح، فإن أمثال هؤلاء القارئين بغير خلفية سابقة، لابد وأن يصبحوا ضحايا لمختلف صور الالتباس [٦٩].

وقد افتقدت بعض أساليب التربية الدينية في العقود الأخيرة المنهج القويم في سبيل غرس الوعي بالعلاقة الوثيقة بين تردى أوضاع الحاضر، وثقافة وأفكار الماضي كأهم وسيلة للتحريض على تغيير ذلك الحاضر، فاضطرت إلى تبرئة الماضي وتكريس صلاحيته وسلامته وحجب الأنظار عن ملاحظة ما فيه إلا إذا كان إيجابيا أو مما يمكن تأويله وتفسيره بشكل إيجابي [٧٠].

وليس أقتل للإنسان في موقفه الثقافي والحضاري من أن يحاكى مرحلة تاريخية سبقت المرحلة التي يعيش فيها، محاكاة تفصيلية، حرفا بحرف، وفعلا بفعل، بل ليس أقتل للنموذج السلفي نفسه من أن يظل الخلف يعيدونه ويكررونه، فلب الحياة التي أبدعتها القدرة الإلهية، وسحرها، وإعجازها، هو في إبداعها، فليس الأمر مقصورا على أن لكل كائن حي ما يميزه عن سائر الكائنات، حتى تلك التي تقع معه في نوع واحد، بل تلك المعجزة الإبداعية لتمتد حتى تشمل جوانب الحياة الفكرية [٧١].

...حتى نغيـــــر ما بأنفسنا!

إذا كانت هذه هي الصورة، بكل ما فيها من قتامة، فإنها مهما بلغت يمكن أن تتبدد إذا استوعبنا هذا السنة الإلهية: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم!

ألا إنه لو اجتمع كل هذا النفر من مفكري التربية وفلاسفتها وعلماؤها عبر حقب الزمان جميعها ليصلوا إلى مثل هذا المبدأ السنة، فلن يستطيعوا..

ومن ثم، فما دمنا نعيش حالة ضعف وهوان، فإن البديل الوحيد أمامنا هو أن نملك القوة، وأن نملك القوة في الحياة، معناه أن نكون أنفسنا لا غيرنا، وأن نمسك بزمام الحياة في عملية إدارة وقيادة. أن تعطينا الحياة طاقاتها وثرواتها لنسخرها كما نريد ونفجرها كما نشاء، ونصنعها كما يروق لنا.

---

(69) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(70) طه جابر العلماني: الفكر التقليدي، ماله وما عليه، في ندوة مستجدات الفكر الإسلامي المعاصر، ص ٥.

(71) زكى نجيب محمود: قيم من التراث، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٤، ص ٣٢٣.

أما أن نفقد القوة فنكون ضعفاء، نفقد القدرة على الصراع، وعلى الحركة، فمعناه أن نكون صورة غيرنا، وظله كمثل الشبح الذي يبدو، ويزول، ليعود في بعض اللمحات، باهت اللون، ضائع الملامح، وأننا لا نشارك في الحياة إلا من بعيد تماما [٧٢]...

واكتساب القوة له شروطه ومتطلباته، لا يجئ بمجرد الدعاء والتمني، وإنما بسلسلة من المجاهدات التي يأتي في مقدمتها: التغيير، والتغيير الذي نقصده هنا هو التغيير الاجتماعي الذي هو شأن جماعي بالدرجة الأولى، ومهما يكن دور الفرد فيه فإنه يبقى مرتبطا بقوم، أي بمجموع الأمة [٧٣]، يقول سبحانه وتعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١)، ويقول: (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (محمد: ٣٨)

ولقد بنى الإسلام كل مناهجه التغييرية وبرامجه على تغيير ما بالنفس، فمن خلال الذات الإنسانية تنطلق عمليات التغيير، وعلى أساس منها يقوم بناؤه، وعلى محور النفس تدور عجلته، بل جعل التغيير الإلهي ثمرة ونتيجة لتغيير ما بالنفس الإنسانية، وتغيير ما بالنفس يبرز أول ما يبرز بالتزكية التي هي عملية تربوية بالدرجة الأولى، وهى من شأنها أن تقوم بتحصين الإنسان من داخله ضد سائر استعدادات الشر والانحراف فيه، وسائر المؤثرات الخارجية عليه، وتحجيم نوازعه الداخلية، وتوجيه طاقاته باتجاه العمران والبناء في إطار الضوابط العقلية والتزكية السلوكية والأخلاقية ليصبح الإنسان عمرانيا بناء نافعا لنفسه، مفيدا لبنى جنسه، مدركا لانتمائه الإنساني ودوره العمراني غير مستلب من أحد، متوازنا بحقيقته الإنسانية [٧٤].

لذلك يبقى الأمر المطروح دائما على المسلم أن يبدأ بتنمية نفسه وتزكيتها ليكون على مستوى خطاب التكليف، قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (الشمس: ١٠)، وأن يطور وسائله في التربية والدعوة إلى الله ليكون في مستوى المهمة التي يتطلبها إسلامه وعصره على حد سواء: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: ١٢٥)

(72) محمد حسين فضل الله: الإسلام ومنطق القوة، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٧٩، ص ١٦.
(73) طه جابر العلواني: الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، الآفاق والمنطلقات، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦، ط٣، ص ٧.
(74) المرجع السابق، ص ١١.

فالمسلم مطالب دائما أن يمارس عملية العكوف على الذات لتربيتها على أمر الله، وأخذها بشرع الله، ولا نعنى بذلك ضربا من السلبية والهروب من الحياة، وفقدان التوازن الاجتماعي، وذلك بالانسحاب من المجتمع، والانقطاع إلى الرياضات الروحية في الكهوف والجبال، وممارسة الزهد الأعجمي بترك التعامل مع الحياة، وإنما في قلب ميدان التربية الميدانية التي لا تتم إلا من خلال الممارسة والمعايشة الاجتماعية، والمعاناة اليومية والتحديات المحيطة، واستشعار هذه التحديات، وعدم الذوبان والسقوط أمامها، وإنما الصلابة والاستيعاب وحسن المواجهة (٧٥).

ومن هنا فإننا نجد أمامنا خطوات نراها ضرورية حتى يمكن للتربية الإسلامية أن تقوم بدورها في عملية النهوض الحضاري للأمة الإسلامية، واضعين في الاعتبار، كما نؤكد كثيرا، أن هذا لا يعنى تحميل العمل التربوي فوق ما يستطيع، خاصة وأن الكثير مما يتطلبه ليس في يد العاملين في الحقل التربوي، فضلا عما هو مفروض من تناسق وتناغم بين مختلف المؤسسات المجتمعية سعيا نحو تحقيق هذا الهدف الكلى:

١ - التأسيس الإسلامي للعلوم التربوية:

ذلك أن الخروج من أزمة التخلف الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية لا يمكن أن يتحقق بأدوات حضارية مقطوعة الصلة بالإسلام وحضارته وثقافته ونظامه القيمي، ومهما بدا لبعض المحللين والمؤرخين والمصلحين من وجود "أدوات للنهضة" مستقلة تماما عن روح الحضارات المتميزة فإن الحقيقة التاريخية تؤكد أن التفاعل مع هذه الأدوات والاستجابة لتأثيرها لا يكتملان أبدا في إطار الشعور "بالغربة عنها"، وهو شعور يضيع الثقة بالنفس، ويزرع الاعتقاد بالعجز (٧٦).

إن الدعوة إلى الأخذ من ثقافة الآخرين، مهما بدت مبررة ومقنعة، فإنها تظل محملة بخطرين كبيرين، أولهما: أن تتحول الاستجابة لها إلى استجابة مطلقة، تأخذ "الأدوات الحضارية"، "قيما حضارية"، ومع الأساليب التقنية أساليب حياة ومعيشة، ونظما للعلاقات الإنسانية، أي تحمل مع "أدوات النهضة"، أدوات الانتكاس في ميادين أخرى، وتنتقل إلى البيئة المحلية مع أسباب التقدم، أمراض التقدم وأعراض الأزمة المصاحبة له. وأما الخطر الآخر، فهو خطر الاستجابة الناقصة نتيجة المقاومة الداخلية والباطنية الناشئة من الإحساس بالخطر،

---

(75) عمر عبيد حسنة: نظرات في مسيرة العمل الإسلامي، الدوحة، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، سلسلة كتاب الأمة (٨)، ١٩٨٤، ص ٨١

(76) أحمد كمال أبو المجد: الحاجة إلى الإسلام في هذا الزمان، مجلة العربي، الكويت، العدد ٣١٩، يونيو ١٩٨٦.

والشعور بالغربة إزاء "أدوات التقدم" المستعارة. إن الشعوب في مراحل ضعفها، وإحساسها بأخطار الغزو الثقافي والسياسي، تميل - بتلقائية غريزية - إلى الانغلاق على نفسها، وإغلاق النوافذ في وجه التيارات الوافدة، وتثبيت أقدامها في أرضها المحلية خوفا من أن تقتلعها العواصف القادمة.

لهذا فإن استخراج أدوات النهضة، وشروط التقدم، يغدو المسلك الأمثل، إن لم يكن الطريق الوحيد الفعال، لمتابعة مسيرة التقدم متابعة لا يتهددها خطر الاندفاع الذي ينخلع أصحابه من ذاتهم، ولا خطر الرفض والتحفظ ومقاومة "الأدوات الجديدة" لأنها وافدة وغريبة وتحمل في طياتها مداخل متعددة للتبعية، وفقدان الاستقلال وضياع الهوية [٧٧].

إن المجتمع والقيادة التربوية ليسا أمرا مجردا ومطلقا، وكل أمة لها وضع خاص مرتبط بظروفها الاجتماعية الواقعية، ومرحلتها التاريخية وروحها الاجتماعية ونوع ثقافتها، ومن ثم فإن المربى، على خلاف الطبيب أو عالم الطبيعة أو الفيلسوف، لا يستطيع أن يكون مربيا بتعلم المبادئ التربوية والمدرسية العامة ومعرفة القضايا التي كانت تقدمية وبناءة في أرضية خاصة، لأن المربين هم الذين يواصلون العمل الذي تعهد به الرسل في التاريخ، والآية الكريمة: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) تعنى أن من تعهد بإيقاظ الناس وتربيتهم، عليه أن يتحدث إليهم بلغتهم، ليس بالمعنى الذي قاله كل المفسرين، أن موسى، على سبيل المثال، كان يتحدث العبرية، ومحمد r كان يتحدث العربية، ليس هذا في حاجة إلى قول، وهل يصح أن يبعث رسول إلى قوم من اليهود ويتحدث بالصينية، مثلا؟ [٧٨] .

فالمقصود أن الرسل لم يكونوا مثل مربينا يجلسون معا ويتبادلون الكلمات الفلسفية والعلمية جدا، بينما لا يملكون الجرأة على اقتحام مواطن التجمعات الشعبية الكادحة للاقتراب من همومها. إن اللسان المقصود هو ثقافة قوم ما وروحهم وعواطفهم وحاجتهم وآلامهم ومتاعبهم وأمانيهم والجو الفكري والروحي والقومي عندهم [٧٩].

ومن هنا فإن المطلوب أن يكون الإسلام هو منطلق العلوم التربوية ومنهاجها في العمل، وهى في ذلك بحاجة إلى أن تعتمد على فهم أصيل للإسلام، ومعاصر في نفس الوقت [٨٠]: أصيل بمعنى أن أصوله تستمد من القرآن والسنة الصحيحة وتلتزم بهما وحدهما مستأنسة بما عداهما، ومعاصر من حيث استشرافه تطبيقات معاصرة لتلك الأصول تلبى الحاجات الحقيقية

---

(77) المرجع السابق.

(78) على شريعتي: العودة إلى الذات، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦، ص ٢٩٣.

(79) المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(80) رؤية إسلامية معاصرة، إعلان مبادئ، ص ٢٤.

للأجيال الحاضرة ولا تنكفئ عقليا ونفسيا على مشاكل وحاجات أمم قد خلت (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم).

وإذا كان الدين يحكم الحياة بقيمه ومقاصده وقواعده العامة وأحكامه القطعية، لذا ينبغي التمييز القائم على ضوابط محددة بين القيم الدينية الأساسية التي تتضمنها النصوص الصحيحة الثابتة وبين الصور التطبيقية التي أملتها ظروف البيئة، أي تحرير الدين من أسر صور التطبيق التاريخية. إن النظم السياسية والاقتصادية تركيبات من صنع الإنسان، ومهمة الدين أن يوجه واضعي النظم وأن يثبت القيم الخلقية الهادية في وضع تلك النظم وتطبيقاتها [٨١].

ومن ثم تقع على عاتق القائمين بالعلوم التربوية مسئولية التضلع في العلوم التربوية، كما يجب أن يسيطروا سيطرة تامة على كل ما يمكن أن تقدمه هذه العلوم، وهذا هو المطلب الأول لتحقيق كفاءة عالية. وعليهم بعد ذلك دمج هذه المعرفة في البنية الأساسية للتراث الإسلامي، بعد عملية غربلة دقيقة يتم فيها حذف بعض عناصرها وتصحيح وتعديل وإعادة تفسير البقية منها بما ينسجم ويتماشى مع نظرة الإسلام العالمية وكل ما يمليه الإسلام من قيم ومفاهيم. كما يجب تحديد علاقة الإسلام بكل وضوح بفلسفة هذه العلوم، أي بطرقها وأهدافها. كما يجب أيضا أن تستحدث طريقة جديدة يمكن بموجبها أن توجه هذه العلوم، بعد إعادة تشكيلها، لخدمة المثل الإسلامية العليا.

وأخيرا، يتعين على هؤلاء المربين، بالقدوة التي يضربونها، بوصفهم روادا في هذا العمل، أن يعلموا الأجيال اللاحقة من المسلمين وغير المسلمين اتباع آثارهم في توسيع نطاق المعرفة التربوية واكتشاف أسرار جديدة للسنن الإلهية في الخلق، وكذلك إيجاد مفاهيم جديدة تفضي إلى تحقيق مشيئة الخالق ومجموعة أوامره ونواهيه ووصاياه بين البشر [٨٢].

٢ - العدل التعليمي:

وهو يعنى أن يحصل كل إنسان، خصوصا هؤلاء الذين في مرحلة طلب التعلم، على حقه في التعليم وفى التربية بغض النظر عن أية عوائق ليست من كسبه هو مثل الفقر، والطبقة، والمذهب، واللون، والبيئة، بحيث يكون فيصل التفرقة هو القدرة على الكسب المعرفي. بل إن الباحثين والمفكرين قد كشفوا، من خلال العديد من البحوث والدراسات، أن المسألة ربما تكون أبعد من ذلك، على أساس أن جملة الظروف المجتمعية التي يعيشها طالب التعلم، غالبا ما تؤثر على كم ونوع الكسب المعرفي، وبالتالي، فمن الضروري أن يمتد البصر بحقيقة العدل التعليمي إلى ما يتصل بالعدل الاجتماعي، وهو ما يحتم علينا ألا نعزل بين الأمرين.

---

(81) المرجع السابق، ص٢٥.

(82) المعهد العالمي للفكر الإسلامي: إسلامية المعرفة، ص ٥١.

ومن هنا فلابد أن نتأكد من تلك الحقيقة التي تقول إن عدالة الإسلام وحضارته هي للإنسان بإطلاق، أيا كان أصله العرقي أو اللغوي أو طبقته أو عقيدته، وهى حضارة تنتشر أنوارها في كل فجاج الأرض وبين كل الأقوام البشر دون تمييز أو محاباة أو تحامل أو استعلاء: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧)، (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان: ١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) (سبأ: ٢٨)، فعدالة الإسلام إذ يشرع أحكامها رب العالمين الذي تعالى سبحانه وتعالى عن الانحياز والتمييز هي للناس أجمعين وليست مقصورة على فئة، حتى إنها حين تعلن الحرب على البغي إذا سدت سبل الإصلاح، تفتح طريق الرجوع إلى الحق، فإن رجع الباغي إلى الحق أخذ مكانه فورا بين جماعة المؤمنين دون حقد أو حساسية (٨٣): (فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الحجرات: ٩).

وإذا كان الإسلام في تربيته للإنسان يحتم أن يتغلب على مواقف الضعف والظلم، فإن هذا لا يتأتى إلا بمقدار الوعي بتلك المقولة الأساسية التي تشكل قاعدة في بناء الشخصية، ألا وهى أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف، ذلك أن كل من يستقرئ النصوص الإسلامية والمواقف النبوية يستطيع أن يرى كيف انطلق القرآن والسنة النبوية في الإيحاء بالقوة المادية والمعنوية، على الصعيد الفردي والاجتماعي، وكيف حاولا أن يصححا المفاهيم الخاطئة عن موارد القوة ومصادرها في الإسلام، ويستطيع أن يعرف كيف يعتبر الإسلام العدالة في الحكم والموقف والكلمة مصدر قوة، وكيف يعتبر الظلم في ذلك كله مصدر ضعف.

وقد أوضح ذلك رسول الله **r** في بعض أحاديثه التي أثار فيها الحوار حول القوة والضعف، إزاء مشهد لعرض القوة، من بعض المسلمين أمامه **r**، فأراد أن يصحح لهم المفهوم، أو يربطهم بالمعنى الأعمق لمدلوله المعنوي العملي في الحياة، فقد جاء أن النبي مر بقوم يتشاءلون حجرا فسألهم عما يفعلونه فقالوا نختبر أشدنا وأقوانا، قال: ألا أخبركم بأشدكم وأقواكم؟ قالوا: نعم، قال أشدكم وأقواكم، الذي إذا رضى لم يدخله رضاه في إثم

(83) محمد فتحي عثمان: القيم الحضارية في رسالة الإسلام، الرياض، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨١، ص ١١٠.

ولا في باطل، وإذا غضب، أو سخط لم يخرجه غضبه عن قول الحق، وإذا قدر لم تدعه قدرته على أن يتعاطى ما ليس له بحق (٨٤).

والظلم ليس فقط مجرد حرمان من حق في مال أو في أرض أو في موقع أو ما إلى هذا وذاك مما يقع تحت طائلة القانون، ولكنه يشمل كل مظاهر حرمان الإنسان من حق من حقوقه التي يستحقها، ومن هنا فإن عدم حصول البعض على حقهم في التعليم هو صورة من صور الظلم، والمعاملات التي تميز بين المتعلمين داخل مؤسسات التعليم بناء على موقعهم الطبقية صورة من صور الظلم، بل إن حصول البعض على أكثر مما تؤهله له قدراتهم واستعداداتهم هو كذلك صورة من صور الظلم.

ومن ثم فإن الذين يتعاونون في سبيل تقديم الخدمة التعليمية إلى الفقراء الذين تعجزهم حالتهم المالية عن الحصول على حق التعليم أو مواصلته يقدمون صورة من صور التناصر التي أمر بها الإسلام والمسلمين، ذلك أن أمر الله الواضح وإرشاد رسوله البين أن جماعة المسلمين مسؤولة عن حماية الحق بعملها وتأييدها كما هي مسؤولة عن حمايته بالقول والبيان، ف "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله"، وعبارة النبي r في التعريف بمبدأ التناصر تستوقف النظر طويلا، فهو يقول: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما، أفرأيت إن كان ظالما، كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره" (٨٥)!

وكمثال لذلك، الأخذ بالشدة على من يمارسون رذيلة الغش في الامتحانات، فهو صورة من صور نصر الظالم، لأن الغاش إذ يحصل على حق لا يستحقه فهو ظالم.

ومن المعلوم أن تكلفة التعليم في عصرنا الحاضر أصبحت باهظة، سواء بالنسبة للدولة أو بالنسبة للفرد، ولقد عمت مختلف المجتمعات مقولة تؤكد على أن ليس على الدولة أن تقدم الخدمة التعليمية مجانية لكل المواطنين، حيث أن ذلك يثقل كاهلها، ومن ثم فعلى القطاع الخاص أن يستثمر ما لديه من أموال في المشروعات التعليمية، بيد أن التجربة العملية في هذا الشأن تشير إلى حرمان ملايين من المواطنين الذين لا يستطيعون تحمل تكلفة التعليم الخاص، بينما يستطيع آخرون ذلك لا لتميز عقلي أو علمي وإنما لتميز اقتصادي واجتماعي.

---

(84) محمد حسين فضل الله: الإسلام ومنطق القوة، ص ٢٩٦.

(85)محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، القاهرة، دار الكتب الإسلامية، ١٩٨٤، ط٣، ص ١٥٩.

ومن هنا وجب على أغنياء المسلمين أن يتقدموا للمساهمة في مواجهة هذه المشكلة بما يعزز حق المسلم الفقير في التعلم، مثلما أكدت على ذلك تجربة (الأوقاف) في الحضارة الإسلامية، وفى هذا نتفق مع "هويدي" في تأكيد عدد من المبادئ في هذا الشأن [٨٦]:

- فنحن نتحدث عن مال الله، وما الآية (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) إلا واحدة من ١٢٠ موضعا في القرآن الكريم، ذكر فيه المال والرزق مرتبطين بمصدرهما ومالكهما الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى.
- ولأنه كذلك، فللناس فيه حق، سواء كان هذا المال مخزونا في بيت مال المسلمين (لدى الدولة) أو مخزونا لدى الأغنياء.
- مسئولية الأغنياء تجاه الفقراء تعززها وتلاحقها نصوص كثيرة، وفتاوى حاسمة وحازمة، فنصيب الفقراء يعطى باعتباره حقا، وليس على سبيل المن والصدقة: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (المعارج: ٢٤، ٢٥)

وقد ناقش القضية الفقيه الظاهري الإمام أبو محمد بن حزم، الذي يعتمد فقهه على ظواهر النصوص وحدها دون اعتراف برأي أو قياس، فقد وجد هنا من النصوص الصحيحة في ثبوتها، الصريحة في دلالتها، الكثيرة في عددها، ما جعله يقرر – في قوة وصراحة – أن من الواجب الديني فرض حقوق إضافية – سوى الزكاة – على الأغنياء القادرين في كل بلد حتى يكتفي فقراؤه، وتسد حاجاتهم الأصلية بحيث تتحقق لهم [٨٧].

وإذا ما استرجعنا ما أشرنا إليه في مواقع عدة من حيوية التعليم للأمة الإسلامية في عصرنا الراهن، فإننا – قياسا على ذلك – يمكن أن نضم حق التعليم إلى هذه الحقوق الأساسية التي أكد عليها ابن حزم.

٣- تنمية التفكير:

فالتفكير هو الوظيفة الرئيسية للعقل، أو بمعنى أصح، التفكير هو العقل في حالة الفعل، حتى لقد أكد علماء أن العقل إنما هو نمط معين من السلوك يتسم بالمنطقية والرشد، وليس اسما لقوة بعينها داخل رأس الإنسان، ولعل هذا يفسر لماذا لم يرد اسم "العقل" بالقرآن، وإنما جاءت الإشارة إلي عملياته مثل التدبر والتفكير والتبصر..وهكذا.

---

(86) فهمي هويدي: حتى لا تكون فتنة، ص ١٥٥.

(87) يوسف القرضاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، القاهرة، مكتبة وهبه، ١٩٨٠، ط٤، ص ١١٤.

وأهمية هذه النظرة تربويا تكمن في أننا لا نسعى إلى أن "نخزن" معارف ومعلومات داخل عقل، خاصة وأننا في عصر عرف بأنه يمثل الانفجار المعرفي بما يتسم به من سيولة لا مثيل لها في تدفق المعلومات، بحيث أصبح من المستحيل أن يستهدف التعليم تزويد المتعلمين بمثل هذا الكم الرهيب، ومن ثم، فالحل يكمن في تنمية التفكير، بحيث يمتلك المتعلم قدرة ومهارة على أن يبحث عن المعرفة بنفسه، ليظل دائما أبدا متعلما، وبحيث يمتلك القدرة والمهارة على الفحص النقدي لما يرد إليه من معلومات، وبحيث يمتلك القدرة والمهارة على توظيف مثل هذه المعلومات فيما هو نافع له ولأمته، وبحيث يملك القدرة والمهارة على حسن الاختيار والانتقاء من هذه المعلومات. وفضلا عن ذلك فإن أجهزة الحاسب الآلي أصبحت تقوم عن الإنسان بعمليات خزن المعرفة واستدعائها بدرجات ومستويات تفوق قدرة الإنسان بمراحل، وبالتالي يكون على التعليم أن يستغل هذه الفرصة فيوجه اهتمامه وتركيزه على العمليات العقلية نفسها.

ومن أولى خطوات تنمية التفكير، تحرير العقل المسلم من الجمود والتقليد الأعمى، وتحريره من الغرور، وتحريره من الهوى، تحريره من الجمود والتقليد الأعمى للسلف، سواء أكان هذا السلف هو سلفنا نحن، أم سلف الحضارة الغربية، فالجمود النصوصي آفة، سواء أكانت هذه النصوص من موروثنا نحن أم مستوردة عن الآخر الحضاري. والغرور العقلاني الذي يزعم أهله قدرة العقل على الاستقلال بإدراك أي شئ، إلى الحد الذي يحكمون فيه "بالاستحالة" على كل ما لا تدركه عقولهم، هو موقف أشبه ما يكون بعبث الطفولة، مع افتقاره إلى براءة الأطفال (٨٨).

وما يجعل هذه الخطوة على درجة كبيرة من الأهمية أننا ورثة تقاليد ذات حساسيات شديدة لأية مراجعات لآراء أو مذاهب تكلمت بها شخصيات كُرست مشروعيتها ومكانتها التاريخية في العقول والقلوب والنفوس، وذلك لخلط سابق تكرس - أيضا - بين الرأي وقائله حتى كاد البعض ينظر إلى الرأي كأنه ذات صاحبه، فأي نقد يوجه لرأى قال به أو تبناه أحد قيادات الرأي أو المذاهب يعد بمثابة نقد لصاحب الرأي أو المذهب، فإذا كان "النقد" عندنا قد أخذ معنى السب والهجو، والآراء قد تشخصت لعوامل تاريخية ومعاصرة، فإن ذلك يعيننا على فهم كثير من الأسباب التي تحول بين بعض من لديهم ما يقولون والإمساك عن الإفصاح عنه والتصريح به (٨٩).

---

(88) محمد عمارة: أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، القاهرة، دار الشرق الأوسط، ١٩٩٠، ص ١٤

(89) طه جابر العلماني: الفكر التقليدي ما له وما عليه، ص ٥.

وشبيه بما سبق في مجال التعليم، أننا عندما نطلب من المعلمين ألا يرددوا ما كلفوا بتدريسه ترديدا أعمى، بل لابد أن ينقدوه، فيتصورون هذا مستحيلا على أساس أن الكتب المقررة قد كتبها – غالبا – أساتذة جامعيون كبار، وكأن هؤلاء محصنون ضد النقد. والشيء نفسه بالنسبة للطلاب، حيث يتصورون أن المعلمين دائما فوق مستوى الشبهات، ومعصومون من الخطأ.

ويفسر علماء النفس جمود كثيرين على التقليد والتمسك بالتقاليد على أنه آلية دفاعية ضد قلق المسئولية الذاتية، فهي (التقاليد) بما يسبغ عليها من صفات القانون الطبيعي، تتضمن تبريرا للعجز الذاتي عند الإنسان المقهور، فإذا كان راضخا أو فاشلا أو بائسا، وإذا كان عاجزا عن تحمل تبعة مصيره والنهوض للتحديات التي تطرحها عليه علاقة القهر وضرورة التحرر منها، فليس الذنب ذنبه، بل هو نظام الحياة الذي قسم له دوره وحدد له مكانته، فكأن التمسك بالتقاليد يحمى الإنسان المقهور من مشاعر الخزي الذاتي، المرتبطة بالمهانة التي تتصف بها مكانته الاجتماعية، وفضلا عن ذلك، فإن التمسك بالتقاليد يحمى الإنسان المقهور من مجابهة ذاته، تلك المجابهة التي تقلقه كثيرا من الهروب نحو الخارج، أي الذوبان التقليدي والشائع، وانضواء تحت لواء المألوف (٩٠).

وإذا كان السبيل الأساسي لتنمية التفكير هو إتاحة فرصة حرية ممارسته، فإن البعض يضع محاذير خاصة بكتابات قد تكون ضالة تنشر الضلالات بين الناس، لكن التجربة تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن فساد الرأي لا يواجه بحجبه ومصادرته، وإنما الوسيلة الأوفق هي إفساح المجال أمامه كي يظهر ويعلن عن نفسه، مسفرا عن وجهه وحقيقته وحجته، حتى يتعامل معه المصلحون على مرأى ومسمع من الجميع، وليس هذا هو منطق العقل وحده، وإنما هو منطق الشرع أيضا الذي نستدل عليه من مطالعة كتاب الله ذاته، الذي أثبت بين دفتيه جميع المقولات التي ترددت في نقض الرسالة والنبوة، بل وفكرة الألوهية والتوحيد ذاتها، سواء صدرت تلك الدعوى عن الكارهين من أتباع الديانات السماوية – اليهود خاصة – أو صدرت عن المنافقين أو المشركين (٩١).

وانطلاقا من حقيقة حرص الإسلام على تنمية التفكير، يستنفر العقل المسلم كي يُعمل، في تحصيل الوعي والمعرفة، سبل وأدوات: النظر – التدبر – التعقل – البينة – البرهان – الجدل...إلى آخر هذه الأدوات التي استنفرها ووظفها، لا في العرفان الباطني وحده، ولا

(90) مصطفى حجازي: سيكلوجية الإنسان المقهور، بيروت، معهد الإنماء العربي، ص ١٠٩.
(91) فهمي هويدي: المفترون، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٦، ١٥٢.

لمعرفة المادة فحسب، وإنما لفقه الواقع الدنيوي والوحي الإلهي، والنفس الإنسانية، أي للوعي بالذات، والمحيط، والمبدأ، والمسيرة، والمصير جميعا [٩٢].

ولئن جاء الوحي بغاية أن يصبح حياة للناس، وأن تكون أوامره ونواهيه سيرة عملية للخلق، فإن في طبيعة خطابه المتصفة بالعموم والشمول، والبريئة في ذلك من قيود الزمان والمكان، مجالا لأن يكون للعقل فسحة الاجتهاد في تنزيل الأفهام على واقع الحياة: تبينا لما يندرج تحت كل حكم من وقائع، وتثبتا من استجماع الوقائع للشروط التي تخول تنزيل الأحكام عليها، وتأجيلا لذلك التنزيل إذا ما تبين أن وقوعه يفضي إلى الحرج والمشقة، وبذلك تكون الأفهام القطعية للوحي ثابتة على مر الزمن تحقيقا لخلود الدين ويكون تنزيلها في الواقع الغاية من الدين التي يحققها العقل بالاجتهاد فيما عرف في الأدب الأصولي بتحقيق المناط، وهو الاجتهاد الذي قال فيه الشاطبي إنه لا ينقطع ما وجد الإنسان [٩٣].

ولعل هذا ما دفع "جارودي" أن يؤكد على أن النهضة الإسلامية تقوم على الاجتهاد، هذا المبدأ الذي نادى به محمد رشيد رضا، ووجد صداه في باكستان مع محمد إقبال، وفى الجزائر مع الشيخ ابن باديس، وكل هؤلاء رواد نهضة الإسلام الحي، أي إسلام قادر على أن يكون مبدأ التغيرات التاريخية الضرورية في عصرنا [٩٤].

إن هذه العقيدة، إذ تعلى من شأن العمليات التفكيرية، وإذ تلح على ضرورة النظر والتأمل والتفكر والتدبر في جوانب الكون المختلفة، مادة، وإنسانا، واجتماعا، وإذ تنبذ التقليد بغير دليل، وإذ تصر دائما على استخدام الحجة والبرهان والدليل العقلي، في القضايا الدينية المختلفة، دون أن تضع قيودا على حركة التفكير إلا ما يتصل بمنظومة القيم الأخلاقية وأصول منهج البحث العلمي، وشروط التفكير السليم، لمن شأنها أن توفر للعقل التربوي فرصا واسعة متعددة لأن يصول ويجول في مختلف القضايا التي تتصل بتنشئة الإنسان وتربيته، وبالتالي تمده بالغذاء الوافي كما، المتنوع كيفا، مما يمكنه أن يكون خير معين على اقتحام مشكلات الحاضر، والمساهمة في بناء المستقبل على أسس راسخة من الوحي والعقل.

---

(92)محمد عمارة: معالم المنهج الإسلامي، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩١، ص ٥٤ .

(93) عبد المجيد النجار: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، هيرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣، ط٢، ص ١٣٥

(94) عمر عبيد حسنة: تقديمه لكتاب: عبد الحق الشكيري (التنمية الاقتصادية في المنهج الإسلامي)، الدوحة، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، سلسلة كتاب الأمة (١٧)، ١٩٨٨، ص ١٢.

٤ - التوجه الإعماري للتعليم:

فعملية النهوض التي تعنى التنمية بمعناها الشامل، لا يمكن أن تحقق إلا من الداخل الإسلامي، آخذة بعين الاعتبار – طبعا – معادلة إنسان الإسلام النفسية والاجتماعية، وأن أي تجاهل لهذه المعادلة يعني عدم التفاعل مع أية خطة مقترحة، كما يعني تكريسا للتخلف، أو بعبارة أصح، تنمية للتخلف ومزيدا من التبعية (٩٤).

إن إسقاط البعد الغيبي بالمفهوم الإسلامي، وتراجع فكرة الثواب والعقاب، وعدم تجاوز عالم الشهادة إلى المستقبل الأبعد – عالم الغيب – والتحضير له عن طريق خطط ومخططات التنمية بمفهومها الشامل تحت ضغط المجتمعات المادية والتفسير المادي للحياة، واعتماد الإنسان الاستهلاكي ومساحة الاستهلاك مقياسا للنمو، يؤدى إلى إصابات نفسية وسلوكية واجتماعية تعوق العمل التنموي نفسه في المجتمع الإسلامي.

إن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال ألا يسعى المجتمع الإسلامي إلى أن يوفر "اليسر المادي" لأبنائه، فكثير من احتياجات النهوض بالأمة وبأفرادها تتطلب أموالا وثروة مادية وغنى ووفرة. وإذا كانت هناك أحاديث نبوية في مدح الزهد في الدنيا، فإن هذا لا يعني مدح الفقر، فإن الزهد يقتضي ملك شئ يزهد فيه، فالزاهد حقا من ملك الدنيا فجعلها في يده و لم يجعلها في قلبه، بل إن الإسلام يجعل الغنى نعمة يمتن الله بها، ويطالب بشكرها، ويجعل الفقر مشكلة، بل مصيبة يستعاذ بالله منها، ويضع مختلف الوسائل لعلاجها (٩٥).

ذلك أن الفقر خطر على أمن المجتمع وسلامته واستقرار أوضاعه، وفى ذلك روى عن أبى ذر قوله: "عجبت لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه"؟ وقد يصب المرء بالفقر إذا كان الفقر ناشئا عن قلة الموارد وكثرة الناس، أما إذا نشأ عن سوء توزيع الثروة، وبغى بعض الناس على بعض، وترف أقلية المجتمع على حساب الأكثرية، فهذا هو الفقر الذي يثير النفوس، ويحدث الفتن والاضطراب، ويقوض أركان المحبة والإخاء بين الناس.

وتقوم التربية للإعمار في الإسلام على ذلك الركن الأساسي ألا وهو الذي عبرت عنه الآية القرآنية التي يقول فيها سبحانه وتعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة: ٣٠)، وقال: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود: ٦١)، إذ أن هذا يعني أن الله عز وجل استخلف الإنسان على الأرض ليقوم بواجب الإعمار فيها، هذه الفريضة يستحيل حسن القيام بها بغير تعليم.

---

(95) يوسف القرضاوي: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ص ١١.

وتبعة الاستخلاف تعني تسخير ما استخلف الإنسان عليه لخدمة الخلق – المستخلفين – وتمكينهم منه، تمكين استعمال أو ملكية انتفاع (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً) (البقرة: ٢٩) (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجاثية: ١٣)، (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) (الأعراف:١٠).

كما تعني تبعة الاستخلاف في الوقت نفسه، العمل كدحا وكدا، وباستمرار من قبل الخلق على تنمية أو تثمير المال خلال الزمن، حتى قيام الساعة، والعمل المطلوب هو العمل الصالح، والذي تزكو به النفس، وتقوم به الأخلاق، وتتسع به دائرة البر ويحفظ به الدين والبدن والعقل والمال والنسل، أي العمل الذي يحقق الإعمار [٩٦]، يقول عز وجل: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) (النور: ٥٥).

ومن البديهي أنه لا إعمار ولا إنتاج بغير علم، وكلما زاد نصيب الفرد أو الجماعة من العلم، ومن استغلال حقائق العلم ومدلولاته ومكتشفاته ومخترعاته، كلما تضاعف الإنتاج وتكاثر في شتى المجالات، فاغتنى الفرد واغتنت الجماعة، فحيث وجد العلم وجدت الثروة، وقد خطت البشرية خطوات واسعة، عندما أصبح العلم مقياسا لكل خطوة تخطوها، وكان كل توقف في حياتها، أو تخلف في سيرها، أساسه الجهل والظلام والحاجة.

وعلى هذا كان العلم في تطوره، تسجيلا لتطور الإنسانية نحو القوة والحضارة، وحيث انطفأ مصباح العلم انتقلت الثروة إلى الغرب، الذي انكب على مجالات العلم المختلفة يغترف منها بأقصى ما يستطيع من قدرة، وليس ذلك لأن الشرق فقد موارده، وأن الغرب قد اكتشف لنفسه موارد جديدة لم تكن له من قبل، فقد بقيت الموارد كما كانت من قبل في الشرق وفى الغرب، وإنما جهل الشرق موارده وينابيع ثروته، فكم في باطن التربة الشرقية، وعلى سطحها من كنوز وثروات وجواهر، ولكن وباء الجهل حجبها عن أبصار أبناء الشرق، فإذا علموا أمرها، حال بينهم الجهل وبين طرق استغلالها، فإذا استغلوها، حال بينهم

(96) عبد الحميد الغزالي: حول المنهج الإسلامي في التنمية الاقتصادية، المنصورة، دار الوفـــاء، ١٩٨٩، ص ٧٠.

وبين طريق تصريفها في الأسواق وبيعها، ومن هنا ليس أمامنا سوى العلم، هاديا ومرشدا ومخرجا من الفقر والفاقة إلى الثروة والكفاية [٩٧].

ولأن الإعمار ليس فقط بناء ماديا، وإنما هو إنساني بالدرجة الأولى كان للتنمية البشرية مكانها المرموق في النموذج الحضاري الإسلامي، إذ ينفرد الإسلام في هذا المجال بنظرة أوسع مدى وأرحب نطاقا، فيحرص على أن تكون التنمية البشرية شاملة لكل جوانب الإنسان البدنية والعقلية والروحية، ولذلك نراه يضع الأسس الفعالة لسلامة بدنه من الأسقام، وتنشيطه بالرياضة والعمل، والحفاظ عليه من كل ما يؤذيه أو يوهن قواه أو يعرقل نموه [٩٨]، فالإسلام يطلق لعقل الإنسان العنان ليفكر ويتعلم ويبحث ويهتدي ويكتشف ويخترع ويؤلف ويملأ قلبه بحب الإنسانية والعمل لخير البشرية، وينقى روحه بالعبادات والقيم الفاضلة، وفى هذا يقول رسول الله r : "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" [٩٩]، وقال أيضا: "لا ضرر ولا ضرار" [١٠٠].

إن الله تعالى يصور البشرية في أحسن صورة حثا لنا على أن نبقيها كذلك شكلا وموضوعا، فقد قال تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين: ٤)، وقال: (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ) (الانفطار: ٧-٨). ويميز الله تعالى هذه البشرية عن سائر المخلوقات بعقل مدبر، ولسان معبر، وإرادة تذلل العقبات وتهيمن على كل شئ، ولهذا سخر لها ثروات الأرض والكون وطاقاته في البر والبحر والجو، تصرفها بعقولها، وتديرها حسب ما فيه صالحها، وتكتشف أسرارها جيلا بعد جيل، وقد جعل الله من العبادة النظر والتفكير في هذه الثروات، حتى يدرك الإنسان فضل الله عليه، فلا يخضع إلا له وحده [١٠١]، وفى هذا يقول سبحانه وتعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (الإسراء: ٧٠).

---

(97)عبد المنصف محمود عبد الفتاح: التنمية والعدالة والتكافل الاجتماعي في الإسلام، ملحق مجلة الأزهر، القاهرة، ربيع الآخر، ١٤٠٤هـ، ص ٥١.

(98) عبد الهادي على النجار: الإسلام والاقتصاد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (٦٣)، مارس ١٩٨٣، ص ٤٩.

(99) أخرجه الخمسة إلا أبا داود.

(100) رواه مالك في الموطأ عن أبى سعيد الخدري..

(101) عبد الهادي النجار: الإسلام والاقتصاد، ص ٥٠.

وحتى في مجال التنمية الاقتصادية التي قد ينصرف مفهومها إلى النواحي المادية وحدها، نجد تربية الإسلام تبرز تلك العروة الوثقى بين القيم الاقتصادية والأخلاقية، وهذا ما يتبدى لنا من خلال موقف رسول الله r في قضية المتسول الذي أتى يسأل عن "لقمة عيش" كان من "حقه" أن يأخذها من المجتمع بنص من القرآن الكريم في الزكاة، وكان النبي أدرى الناس بتطبيقه، كما كان r أجود من الرياح السخية في الربيع لتقديم هذه اللقمة لمسكين جاء يطلبها، ولكن أعمال النبي تشريع أو عبرة لأمته فأشار على من حوله من الصحابة بأن يجهزوا هذا الفقير ليحتطب، وأشار على الرجل بأن يحتطب ليأكل من عمل يده [١٠٢].

فإذا حللنا هذه القصة من حيث أبعادها الخلقية نرى كيف يحل الرسول أزمة اجتماعية تعرض عليه صورة متسول من المساكين، فيفضل r حلها في نطاق "الواجب" على "الحق"، أو إذا قدرنا الأبعاد الاقتصادية، فإننا نراه r يفضل الحل في نطاق "الإنتاج".

كذلك فقد حرص الإسلام على إرساء العديد من القواعد في التربية الاقتصادية من شأنها ترشيد السلوك الاقتصادي، مما يعنى إضافة إلى القوة القائمة، وربما يضيق المقام عن التفصيل في مثل هذه المبادئ، مما يضطرنا إلى أن نكتفي بالإشارة إلى أمثلة قليلة وموجزة مثل [١٠٣]:

- عدم الإسراف والتبذير: فلقد شدد القرآن على عدم التبذير، ويتجلى هذا في قول المولى عز وجل: (وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) (الإسراء: ٢٧)، ويقول: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) (غافر:٢٨)
- عدم الترف والبذخ والمظهرية[١٠٤]: فيجب تجنب حياة الترف والبذخ والارتكان إلى الدنيا وتناسى الآخرة لأن هذا بدوره يقود إلى الكسل والخمول وعدم الإنتاج، ولهذا يقول سبحانه: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (الإسراء: ١٦)
- الاقتصاد في النفقات: فلقد أمرنا الله عز وجل بالاعتدال في الإنفاق، لأن الإسراف أو التقييد يسببان مشاكل مادية ومعنوية، فيقول سبحانه وتعالى: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) (الإسراء: ٢٩)، ويقول

(102) مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دمشق، دار الفكر، ١٩٧٩، ص ٨٩ .

(103) حسن حسين شحاتة: مشكلتا الجوع والخوف، وكيف عالجهما الإسلام، المنصورة، دار الوفاء، ١٩٨٩، ص ٣٤ .

(104) المرجع السابق، ص ٣٧.

كذلك: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (الفرقان: ٦٧)